415

من الأدب الساخر

الطبعة الثالثة

# لقد وقعنا في الفخ

يوسف معاطي

http://www.maktbtna2211.com/



الدار المصرية اللبنانية

كتابنا القادم

الطبعة الثانية

# العسكر و الدستور في تركيا

## من القبضة الحديدية... إلى دستور بلا عسكر

د. طارق عبد الجليل

مجموعة شركات نهضة مصر للنشر
75 سنة
اليوبيل الماسي
1938 تأسست

R4BIA

من الأدب الساخر

# لقد وقعنا في الفخ

يوسف معاطي

الدار المصرية اللبنانية

# مقدمة الناشر

عفوًا.. اسمحوا لي أن أكتب أنا المقدمة.. فكاتبنا لا يحب المقدمات.. وهي إشكالية جدلية طالما اختلفنا بشأنها في كل كتبه السابقة.. فهو يرى – وهذا حقه – أن الدخول في الموضوع مباشرة مناسب أكثر لروح العصر.. ولطبيعة القارئ الآن.. بينما نرى نحن – وهذا رأينا – أن المقدمة أشبه بغرفة استقبال.. يتهيأ فيها القارئ.. لكي يدخل إلى الموضوع.. هي أشبه بشاطئ هادئ.. يأخذ فيه القارئ نفسًا عميقًا قبل أن يقفز في بحر متلاطم الأمواج.. ولأحكِ لكم الآن كيف خرج هذا الكتاب الساخر إلى النور.. فكاتبنا رغم تنوع وتعدد أعماله السينمائية والمسرحية والتليفزيونية إلا أنه فيما يختص بالكتاب الذي يقدمه لكي ننشره له.. يبدو شديد التردد والوسوسة، ولولا متابعتنا وملاحقتنا له لكي يرسل الكتاب لما كان قد قدم كل هذه الكتب الأدبية الساخرة التي تلقى رواجًا وقبولًا كبيرًا بين القراء.. ولهذا فهو بالكاد يقدم كتابًا في العام.. وفي آخر لحظة دائمًا. ومنذ عدة سنوات طلبت منه أن يقدم لنا رواية، وبدأ فعلًا في كتابتها.. لكنه في كل عام كان يؤجلها للعام الذي يليه.. إلى أن حاصرناه كالعادة وصدرت الرواية في ديسمبر 2010

بعنوان (بانجو)، وكان اسم الرواية صادمًا فأنا أعرف الكاتب على المستوى الشخصي والعائلي، وأعلم يقينًا أنه بعيد كل البُعد عن هذه الأجواء.. اعترضت في البداية على اسم الرواية، ولكنه بحياء جم ودماثة خلق قال لي: ربما بعد أن تقرأها تغير رأيك. وقرأت الرواية.. ووجدت أن الاسم مناسب جدًّا لها.. ومنطبق تمام الانطباق على موضوعها وأحداثها.

ثم بعد ذلك قدم لنا رواية ثانية طويلة تجاوزت الأربعمائة صفحة.. هي (فرقة ناجي عطاالله)، تلك التي قدمت كمسلسل تليفزيوني ناجح وتابعته بشغف كل البلاد العربية.. والمسلسل لم يقدم كل ما في الرواية من أفكار وأحداث وكشف لدول الجوار، وللحدود التي بين البلدان العربية، وكانت المقارنة دائمًا لصالح الرواية.

وهكذا مر عامان أو أكثر لم يقدم فيهما الكاتب كتابًا ساخرًا، وبدأ القراء يسألونني.. ألم يقدم يوسف معاطي كتابًا ساخرًا جديدًا؟! ماذا قال بعد الثورة؟! ما هو رأيه في الأحداث الجارية في الوطن العربي؟!

وكلمناه.. ووعد أن يقدم لنا الكتاب.. في آخر لحظة كالعادة. وجاءني الكتاب لأجده في أول صفحة قد كتب جملة واحدة.. (انتهى عصر المقدمات)، هكذا حتى يفوت عليَّ الفرصة ولا أطلب منه أن يكتب مقدمة.. ولكنني بعناد وإصرار ها قد كتبتها.

والكتاب الذي بين يديك الآن هو سخرية مُرة من حالة التردي والانهيار الأخلاقي الذي حدث في مجتمعنا على طريقة يوسف معاطي.. وبين ثناياه وسطوره أفكار عميقة ومعانٍ جديدة.. التقطها كاتبنا بمهارة وحرفية

بالغة.. فكوميديا يوسف معاطي ليست تلك الكوميديا اللفظية التي تعتمد على اللعب بالألفاظ.. إنما هي كوميديا المفارقة.. كوميديا الحياة. ولذا فأنت ستضحك جدًّا وأنت ترى نفسك وكل من حولك يظهرون في هذا الكتاب كما هم بلا أقنعة.. بوجوههم وتصرفاتهم الحقيقية. وإني لأندهش كيف استطاع كاتبنا أن يغوص ويتعمق في طبيعة وسلوكيات الشعب المصري بهذه الصورة، وأنا أعلم أنه منعزل تمامًا عن الشارع ولا يخرج من بيته أبدًا، ولا يظهر في أي مكان أو في وسائل الإعلام؟ ولا أعلم كيف التقى بهؤلاء البشر الذين كتب عنهم؟! إلا إذا كان ينزل متخفيًا وينخرط بين الناس.

وفي النهاية أتوجه بكلمه للقارئ العزيز.. لا بد وأنك تدرك كما أدرك أنا أيضًا أن المزاج العام ليس على ما يرام، وأن حالة من الحيرة والكآبة تسود المشهد. وإذا كان الكاتب قد استطاع أن يرسم ابتسامة حقيقية على وجوه الناس قبل الثورة.. فما أحوجنا إلى تلك الابتسامة في هذه الأيام. ولأنني أول من قرأ هذا الكتاب فإنني أدعوك لقراءته.. لتبتسم مثلما ابتسمت.. وتضحك مثلما ضحكت. وبعد ذلك.. تأمل ماذا كان الكاتب يريد أن يقول.. ستجد أن وراء الأكمة ما وراءها، وهو ما ينطبق عليه بيت الشاعر الذي يقول:

**إذا رأيت نيوب الليث بارزة  فلا تظـنن أن الليث يبتسم**

**الناشـــر**

# - اصطباحة -

مؤيدو التيار الإسلامي يريدون الاحتكام إلى «الصندوق»..

وقد هدَّدهم الراحل عمر سليمان بأن يفتح «الصندوق» الأسود، ولكن القدر لم يمهله لكي يفعل ذلك وعاد إلى بلاده في «صندوق»..

والإخوان ملأوا الدنيا ضجيجًا وصخبًا حول إهدار المال العام في الصناديق الخاصة.. ومنذ حكموا البلاد لم نسمع عن أي «صندوق».

والحكومة الآن تريد قرضًا من «الصندوق»..

والنخبة تبحث عن فكرة من خارج الصندوق.

ورغم توفر كل هذه العناوين في بلدنا.. إلا أن بعض التيارات المتشددة تعلن أنها ستلم المعارضين للرئيس وتجيبهمله في شكاير !!!! وليس في صناديق.

# منتهى السفالة

هل حدث أن سألت أحدهم سؤالًا عاديًّا.. لطيفًا.. وديعًا.. فرد عليك من سألته بعنف وبغلظة وبزهق بعد أن نفخ تلك النفخة التي جعلتك تشعر أن سشوارًا موجهًا إلى وجهك يكاد أن يحرقه؟! إذا حدث معك ذلك لا تفاجأ ولا تندهش.. فشعبنا لم يعد كما كان.. تقول له إزيك يقولك الله يسلمك.. تقوله صباح الخير يقولك صباح النور.. خلاااص.. انتهى هذا العهد.. فبعد الثورة صار شعبنا حرًّا.. سياسيًّا.. استراتيجيًّا.. مفاجئًا.. صادمًا.. فلا تلم هذا المواطن الذي رد على سؤالك الوديع بغلظة مفاجئة فأحرجك.. وأخذك على خوانة.. فيجب أن تراعي أولًا حالته الثورية، وحالته المادية وحالته المعيشية والإعلامية أيضًا. ويجب أن تراعي وهذا هو الأهم.. أن سؤالك البريء هذا.. لا بد وأنه.. (المواطن الزهقان هذا الذي سألته) سمعه آلاف المرات من آخرين غيرك.. فأرجو أن تقدر ظروفه وتتحمله. وتذكر أنه تحمل هذا السؤال من آلاف المواطنين قبلك وربما أجاب عليهم بصبر جميل.. وجات على حظك انت بأه.. وقفلت معاه.. لنتحمل بعض يا جماعة.. تحملنا كثيرًا ذلك العادم الذي يخرج من الشكمانات فيملأ صدورنا.. ألا نتحمل

بعض الهواء الساخن الذي يخرج من الصدور المخنوقة.. ثم إن هناك أسئلة تفقع برضه!.

وقد دار هذا الحوار السياسي الرفيع بجواري على المقهى.. بين اثنين.. كانا قد تعارفا منذ لحظات قليلة وعزم أحدهما الآخر على شاي والآخر ردها له بحجر معسل. فجلسا متجاورين في الترابيزة يتناغيان، وهكذا صارا أصدقاء في لحظة.. تلك العبقرية المصرية في التواصل ومد الجسور مع الآخرين. كان حوارهما المصري الممتع الذي كنت أتنصت إليه بمصريتي أنا أيضًا حوارًا رفيعًا ودودًا راقيًا حميمًا.. إلى أن هتف أحدهما بالآخر:

بقولك إيه يا عمنا بأه.. هي مصر رايحه على فين؟

فنظر له الآخر.. نظرة مليئة بالغيظ وفقدان الصبر.. وتنهد في أسى ولم يرد.. ولكن الذي سأل كان مُصرًّا على السؤال..

مصر.. مصر رايحه على فين؟

وإذا بصاحبنا يفقد أعصابه فجأة.. ويصرخ فيه:

رايحه على .... أمك.

كان الرد سافلًا وصادمًا بصورة جعلت المواطن الذي سأل كأنه تلقى لكمة مفاجئة فترنح. وكان يجب عليه بالطبع أن يتمالك قواه ويدافع عن نفسه. ولأن «الأم» صارت طرفًا في هذا الجدال السياسي الرفيع الدائر بين مواطنين تعرفا على بعضهما البعض منذ خمس دقائق فكان يجب أن يرد عليه قائلًا:

أنا غلطان اللي بسأل .... أمك.

وكما يرتفع سقف المطالب في الثورات يرتفع سقف السفالة في الخناقات.. ثم تتطور إلى مرحلة خلع الأحذية ورفع الكراسي.. انتهاءً بإصابات.. وكدمات.. وغرز.. وتهديد.. ووعيد وظهور طرف ثالث بالتأكيد.

ولغتنا الجميلة.. التي هي يسر لا عسر كما قال الدكتور طه حسين.. زاخرة بالمحسنات البديعية والاستعارة.. والكناية.. والتورية.. والجناس اللفظي.. وذلك ما يعطيها مرونة وحيوية لا مثيل لها بين لغات العالم، ويعطيها قدرة على الاشتقاق، وعلى نحت تعبيرات جديدة.. فتجعل لسفالتنا طعمًا.. ومذاقًا خاصًّا.. ننفرد به دونًا عن سائر بلاد الدنيا.. وذلك ما جعلنا نتفرد بفعل إنساني.. لا يفعله غيرنا في العالم كله.. ذلك ما يسمى بالسباب الجماعي، وهو حالة فريدة من الاتفاق والتلاحم الجماهيري والتوحد حول جملة واحدة يرددها آلاف من المواطنين في نفس الوقت فتخرج الألفاظ المشتقة من الأجهزة التناسلية - وهو اشتقاق له مغزاه في العقل الجمعي - ثم بمهارة شعبية شديدة.. في لحظتها يجد مواطنونا القافية المناسبة.. واللحن المناسب ليكتمل الهتاف. ودون بروفات أو استعدادات.. يهدر في الاستاد أو في الميدان.. هديرًا ضخمًا منظمًا رائعًا.. ورغم أننا عندنا قانون اسمه قانون خدش الحياء العام؛ إلا أن السباب الجماعي ليس جريمة بمقتضى هذا القانون.. لماذا؟! لأن السباب الجماعي هو الرأي العام فكيف يخدش الرأي العام الحياء العام والاثنين إخوات؟! وحينما بدأت ثورتنا بهتاف محكم.. محدد الألفاظ.. واضح الاتجاه.. الشعب.. يريد.. إسقاط النظام.. أربع كلمات فصيحة.. في عبارة محترمة راقية.. شعر المصريون بشعور لا يخفى على أحد أن الجملة

ليست شعبية بما يكفي.. وليست معبرة بما يكفي عن مكنون الصدور.. ثم إنها تقال في بلاد كثيرة غير بلادنا نفس الجملة بنفس الألفاظ حتى في موريتانيا وساحل العاج.. ومع ذلك عندنا ظلوا يرددونها؟! أهو أحسن من مفيش.. بينما كانت العقول المصرية الشابة الموهوبة تعمل بلا توقف لتبدع شيئًا جديدًا صادمًا مفاجئًا شعبيًّا هوه احنا بتوع يريد وإسقاط برضه.. حتى إن الدولة في البداية فهمت الهتاف خطأ.. فهي لم تتعود هذه النوعية من الهتافات الرزينة الوقورة.. واعتقدوا أن الشعب يريد إسقاط وزارة الداخلية.. أو إقالة الوزير فقط وكان هذا هو التقرير الذي قدم للدولة.. لترجمة هذا الهتاف الجديد. بل إن تقريرًا آخر قدمه أحد الأجهزة يؤكد أن هؤلاء المتظاهرين بالتحرير ليسوا مصريين ويتكلمون كلامًا غريبًا بلهجة غريبة.. وفجأة وعينك ما تشوف إلا النور.. طلعت هتافاتنا احنا بأه.. ودي لا عاوزة تقارير ولا أجهزة.. بدأت برفع الأحذية - وهي إشارة غضب مصرية صميمة لا يفهمها إلا نحن - فنحن نحتقر الأحذية.. ونعتبرها إهانة لا أعلم لماذا مع إن جوز الكوتشي التعبان بيعمل له ألف جنيه ع الأقل. وبدأت تعلو في الميدان.. إرحل.. إرحل يابن الجزمه. هنا فقط بدأت الأجهزة تفهم.. فالأجهزة تعلم جيدًا أن المصري حينما يخلع حذاءه ويرفعه يبأه خلاص. وبدأت الهتافات تتنوع وتبدع وتلهب حماس الشعب الذي يحب الشتيمة أكثر من الضرب بكتير. وقد سمعت أن واحدًا من النُخبة وقف وقال بهدوئه المقيت للمتظاهرين..

يا جماعه.. احنا جايين نهتف مش جايين نشتم.

فرد الجميع عليه..

لا يا .... أمك.. احنا جايين نشتم.

ومعهم حق.. فهل إذا أتوا إلى الميدان.. ووقفوا صامتين مهذبين مع موسيقى حالمة لكورساكوف، أو وقف عمر خيرت ليعزف لهم على البيانو.. هل كان النظام سيرحل؟!. قلت لصديقي الأديب هذا الذي شتموه في الميدان لأنه طالب الثوار بأن يهتفوا في أدب: إذا أردت أن تنهى الناس عن فعل شيء يجب أن تقدم لهم البديل.. فهل مثلًا كان البديل أن يهتف الثوار هكذا:

من فضل حضرتك يا ريس.. يا ريت ترحل.

مع كل الحب والاحترام الشعب يحلم بإسقاط النظام.

ممكن نقعد احنا يا ريس وحضرتك تمشي.

المشكلة التي لا يدركها البعض أن أي شيء جماعي يحتشد له عدد كبير من الناس يصبح أمرًا واقعًا فوق الأخلاق والقوانين والدساتير.. حتى لو كان سبابًا جماعيًّا وسفالة جماعية.. وحينما كان شبابنا يظهرون على الشاشات ويتكلمون بلا ذوق أو أدب أو لياقة كان البعض يستاء منهم.. ويستاء أكثر لأنني لا أستاء منهم. ليتسافل الجميع.. فقد احتجت أنا شخصيًّا في أوقات كثيرة لهذه السفالة.. فأعانتني حينما لم ينفع الأدب الذي كان بالنسبة لي مهانة وليس مهنة.. ما لكم.. تندهشون من أنني أدعو إلى السفالة.. نعم.. أدعو إليها بكل قوتي.. بل بكل سفالتي.. فالسفالة هي الأمل الوحيد الباقي لمجابهة سفالة الآخرين. استعدوا.. احتشدوا.. أعدوا أذرعكم وأصابعكم وأنوفكم وبذاءاتكم.. فالأخلاق الحميدة التي امتطيناها لعقود طويلة

أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه. إذًا.. لنتسافل.. ونتشاتم.. ونسب هؤلاء الذين يظنوننا مؤدبين.. طيبين.. يع.. ولا أريد أحدًا أن يفتح لي كتاب الثورات.. ويظل.. ينظر ويحلل.. ويشرح لنا أن أي ثورة في الدنيا بيحصل فيها كذا وكذا.. ويجب عليكم أن تفعلوا كذا وكذا..

هي كده.. ثورتنا احنا بأه كده.. واللي مش عاجبه .... أمه.. على .... أم اللي جابوه.

# أهمية أن تكون سافلا

حينما تنام القوالب وتقوم الأنصاص.. ويختلط الحابل بالنابل.. لا يصبح هناك كبير ولا مهم.. ولا يصبح أي شخص مهما علا شأنه فوق النقد أو الهجوم بل والسب والقذف والتجريح أيضًا.. إن النيل من المشهورين وسبهم يحدث نوعًا من التوازن البيولوجي في الحياة.. وحالة من حالات الرضا العام والارتياح الشعبي.. وهو من مكاسب الديموقراطية التي لا شك فيها. وهؤلاء الذين يعترضون على السفالة.. متمسكين بالأخلاق والأدب والاحترام.. هم يقينًا من فلول الدكتاتورية. فحينما كُنا نسجد خاشعين لملوكنا الفراعنة متأدبين حريصين في كل كلمة تخرج من ألسنتنا لم نكن نفعل ذلك بدافع من الخوف أو القهر وإنما لاقتناعنا بالديكتاتورية وإيماننا بها. وهكذا نشأنا.. في تربية أخلاقية شبه عسكرية.. فلم أكن أستطيع أن أرفع عيني في عين أبي مثلًا.. مجرد رفع العين كان جريمة عائلية.. وأسمع أصداء لصوت أبي وهو يتعجب!..

شايف الواد البجح بيبص لي ازاي؟

وأدركت وقتها أن مجرد النظر جريمة.. وأن العين مكانها الطبيعي وموقعها هو الأرض، ولم أكن أستطيع طبعًا أن أضع ساقًا فوق ساق أمام أي شخص أكبر مني.. رغم أنها مجرد حركة عضلية لإراحة ساق وإرهاق ساق أخرى، مع الأخذ في الاعتبار أن كلتا الساقين يخصانني ولا يخصان غيري إلا أن أصداء صوت أبي لا تزال تطن في أذني..

نزل رجلك يا سافل يا قليل الأدب.

وكانت كلمة «أنت» جريمة كبرى.. إذا خاطبت بها أحدًا فهي دلالة على المساواة البغيضة بيني وبين من أحدثه والذي هوه بالتأكيد أكبر مني.. وأحسن مني وجزمته برقبتي.. ولذا كان يجب أن أقول (حضرتك). لاحظوا أن التعبير يعني أنني لا أجرؤ على محادثة الشخص نفسه.. إنما فقط مسموح لي أن أتكلم عن حضرته.. أي وجوده وحضوره فقط.. دون أن أتجاوز في حديثي وأصل إليه مباشرة.

وعشت عمري كله مقيدًا بهذا.. (الأدب).. فصرت أحترم وأبجل كل من حولي تبجيلًا مبالغًا فيه.. وخشوعًا فرعونيًّا أصيلًا لكل من هب ودب.. أقبل يد أبي وأمي.. وأقف انتباه أمام أخي الأكبر وأصدقائه وأحترم عمتي وخالتي وخالي وجوز عمتي ومرات خالي احترامًا شديدًا.. وإذا كان عمو وليم جارنا نازلًا على السلم يجب أن أقف احترامًا واضعًا عيني في الأرض حتى ينزل هو.. قصدي حضرته.

وكان أبي (يرحمه الله) يتباهى في مجالسه مع الكبار الآخرين من أصدقائه الذين كنت أحترمهم طبعًا وأجلهم جدًّا.. ويقول.. أنا أصلي مربي ولادي

كويس.. وقد جاء إلينا مرة المكوجي.. بالمكوة.. وفتحت الباب.. فسألني أبي.. مين اللي ع الباب؟ قلت له ده بيومي المكوجي حضرتك.. فشخط فـيَّ شخطة مرعبة وقال لي.. بيومـي حاف كده.. إيه السفالة دي؟!. مش ده راجل كبير؟!.. تقول له عم بيومي.. وعدت إلى عم بيومي واعتذرت له طبعًا.. وحينما طرق الباب بعد يومين.. وفتحت الباب.. هتف بي أبي كالعادة مين يابني اللي ع الباب.. قلت له بأدب جم.. ده أونكل علي الزبال وحضرته جاي علشان ياخد الزبالة.

واليوم.. اسمحوا لي أن آخذ حقي في السفالة بأه.. تلك التي حرمت منها عقودًا طويلة.. كنت أرى بعضًا من أبناء جيلي يتسافلون.. ويطلقون الألفاظ الخارجة من أفواههم في أي مناسبة وبلا أي قيد.. فتعجبني ولا أستطيع أن أرددها مثلهم.. تصوروا.. بعد هذا العمر لم أستخدم أنفي وفمي ذلك الاستخدام الذي يفعله البعض اعتراضًا على شيء.. لم أقل في أي موقف تعرضت له الكلمة السافلة التي تناسبه.. كان النقاش حينما يحتدم وتبدأ السفالة في فرض إرادتها على الحوار.. كنت أنسحب.. وصدى صوت أبي يلاحقني كأنه صوت الضمير.

العيبة ما تطلعش من بُقك.. مفهوم.

وظلت السفالة حلمًا يرودني.. مكبوتًا في صدري.. كاتمًا على أنفاسي يريد أن يخرج.. أن ينفجر.. وفجرت بأه.. ما هو أنا عامل زي اللي ما شافش اللحمة.. وأول ما ح اشطح ح انطح واضرب في الكبير علطول.

وأول من سأصب عليه جام سفالتي.. هو ذلك الكاتب الزميل الذي ملأ الدنيا بمؤلفاته وكتاباته وحظي بشهرة مهولة لا يستحقها.. وإنما هو رزق

الهبل ع المجانين.. سأكشف لكم سخافته وقلة حيلته.. هذا المدعو وليم.. وليم شكسبير.. أرجوكم.. لا أسمح لأحد أن يقول لي.. ما يصحش.. ده كاتب زميل.. وأخلاق المهنة والحاجات دي.. احذروا سفالتي.. أنا بقولكم أهوه.. وإني ليتردد إلى مسامعي الآن أصداء صوت أبي وهو يهتف بي:

عيب يابني.. ده كاتب كبير وما يصحش اللي انت بتقوله ده.

فأشخط فيه قائلًا:

بابا.. حضرتك ما لكش دعوه بالموضوع ده.. خلّي حضرتك بره الموضوع.

نيجي بأه للأخ وليم شكسبير.. أولًا أؤكد لكم.. بالمستندات.. أن هذا الرجل فلول.. والسي ديهات التي سأرسلها للنائب العام ستؤيد اتهامي.. فكان يؤلف الروايات التي يعرضها في القصر أمام الملك المخلوع وحاشيته.. واستطاع أن يحصل على أراض من المملكة بتراب الفلوس.. ثم إنه لقربه من السلطة الحاكمة.. احتكر التأليف والمسرح.. فلم يظهر بجواره أي مؤلف آخر.. ولا سمعنا عن فرقة مسرحية أخرى تعمل غيره.

وبالإضافة لجريمة الاحتكار.. فهو لص.. نعم.. وليم حرامي.. ومعظم أعماله مسروقة بسفالة واضحة.. وبالمستندات.. روميو وجوليت وهي أولى مسرحياته.. لطشها من قصة كتبها شاعر إنجليزي مغمور اسمه أرثر بروك.. لا أحد يسمع به الآن.. والرجل آثر الصمت ولم يرضَ أن يدخل في مشاكل مع وليم القريب من القصر.. حتى لا يحدث له ما لا تحمد عقباه.. وسبب آخر لم يجعل أرثر بروك يعترض.. هو أنه هو نفسه كان لاطشها برضه من

كتاب اسمه (قصر المسرات) للمؤلف وليم بنتر.. وهو كتاب يجمع مؤلفه فيه قصصًا وحكايات إيطالية رائعة.. وهذا ما جعل الأخ وليم ينقض مرة أخرى في مسرحيته الشهيرة (الليلة الثانية عشرة) على قصة إيطالية لمؤلف اسمه (نيكولاستش) وقصة إيطالية لمؤلف آخر اسمه (كيرزو جنزاجا) ومحدش قادر يقول له تلت التلاته كام.

نيجي بأه لهاملت.. اللي قارفينا بيها دي.. والتي تجري حوادثها في الدانمارك والمأخوذة عن رواية برضه بنفس الاسم.. كده وضع يد.. وبعد كده راح رازعنا (عطيل) وهي برضه مأخوذة عن قصة إيطالية قديمة.. ما غيرش فيها حاجة غير الأسامي وجه على اسم ديدمونه.. استخسره.. راح مسميها ديدمونه برضه.. شفتوا فُجر أكتر من كده! وفي مرة قاعد الأخ وليم بيقرا كتاب لبلوتارك السير الإنجليزي ولقى قصة أنطونيو وكليوباترا.. راح شاقطها علطول وفاقعنا الرواية اللي كسرت الدنيا والعالم كله قعد يسقف له.. وبلوتارك تلاقيه بيتعذب في تربته.

هذه بعض المستندات الأولية التي سأتقدم بها للنائب العام في الزميل وليم الحرامي.. متهمًا إياه بالتربح وإهدار المال العام.. وأخيرًا سألقي إليكم بالقنبلة.. إني أتهمه مباشرة.. بأنه قاتل وسفاك للدماء.. نعم.. أقولها بملء فمي لا توجد رواية من رواياته إلا ويسقط أبطالها في نهاية الرواية قتلى مسفوكي الدماء.. وبالمستندات.. روميو انتحر وجوليت انتحرت وكليوباترا شرحه وأنطونيو حصّلها.. وفي نهاية هاملت سبعة يسقطون أمام أعيننا يتضرجون في دمائهم وعطيل قتل زوجته وانتحر بالسيف وأياجو أعدم.. ما فعله شكسبير هذا أسوأ بكثير مما فعلته الداخلية بالمتظاهرين..

آلاف القتلى يسقطون ونحن نصفق ونعجب وننبهر بهذا الوغد.. وكتاباته.. ولكنني لن أسكت بعد اليوم.. لقد صمت كثيرًا عن السفالة ووضعت لساني في فمي لعقود طويلة.. خلاص لقد أشرق فجر سفالتي.. وسأشتم من أريد.. وبالنسبة لهؤلاء الذين يدافعون باستماتة عن بيتهوفن وسيمفونياته المزعومة.. وليوناردو دافنشي ولوحاته إياها.. كالموناليزا وغيرها.. فإنني أحذرهم.. وأنا جاد في تحذيري.. السافل ليس له كبير.. في ثانية.. المستندات ح تطلع.. ولن يرحمكم أحد من سفالتي.

# انطباعات فنية وكروية وسياسية في المسألة الزوجية

لا شك أن كرة القدم.. والسياسة.. والفن يمثلون مثلثًا متساوي الأضلاع يوجد بداخله المواطن المصري.. فلا يخلو يوم في حياته اليومية ولا تخلو مائدة أمامه في أي وجبة من وجباته.. من هذا الصنف أو ذاك.. أو الثلاثة مجتمعين.. وأنت يا عزيزي حينما تشجع بحماس وتتوحد مع فريق بعينه أو حزب بذاته أو عمل فني رفيعًا كان أو هابطًا.. فلا بد أن تدرك أنك باللاوعي تتوحد مع ذاتك وأن هذا الفريق أو هذا الحزب أو ذلك العمل الفني مرتبط بشيء ما.. يكمن بداخلك.

والعلاقة بين حياتي الشخصية.. والحياة الفنية وثيقة ومتشابكة مررت خلالها بكل عناصر العمل الفني ولعبت كل الأدوار.. ففي فترة الخطوبة.. حينما أقدمنا على أن نكمل نصف ديننا.. رغـم أن النصف الأول لم يكن مكتملًا بالشكل اللائق.. ومع ذلك تعجلنا في إكمال النصف الآخر.. في محاولة خبيثة لإقحام الدين في موضوع يتلخص في أن واحدة أعجبتنا.. لأسباب دنيوية وفسيولوجية بحتة.. ولم يكن هناك من وسيلة للفوز بها في ظل مجتمع متحفظ إلا أن نشتري دبلتين ذهبيتين.. ونذهب إلى أهلها.. ونطلبها في أدب وخشوع.. وندعي أننا جئنا لكي نكمل ذلك النصف الذي ينقصنا من ديننا.. وفي فترة الخطوبة.. كنت أنا البطل.. بطل الفيلم.

تتعامل معي البطلة (خطيبتي في ذلك الوقت) بمنتهى الرقة.. وصوتها الهادئ الحنون يشجيني ويطربني. ثم إنها (تغير عليا) تلك الغيرة البناتي الممتعة التي تشعرني (كبطل للفيلم) أنني أجمع بين فتوة رشدي أباظة.. وعذوبة عبد الحليم حافظ.. ووقار عماد حمدي.

وكان الجمهور (أهل خطيبتي يعني) يستقبلونني في زياراتي إليهم بحفاوة بالغة ذلك الاستقبال الذي يرضي غرور بطل مثلي.. بالصواني المليئة بما لذ وطاب.. والمعدة خصيصًا لي.. وبإخراج طقم الصيني الذي لا يخرج من (الشوفونيرة) إلا للعزيز الغالي.. حتى الشاي لم يكن يقدم لي في كوب عادي.. وإنما في طقم شاي من الفضة بما يؤكد أنه شاي كومبليت.. وكان أهل خطيبتي يضحكون جدًّا لأسخف النكات التي كنت أرددها في فترة الخطوبة.. مبهورين بلطافتي وخفة دمي، وقد شجعني هذا الاستقبال الرائع من جمهوري (أهل خطيبتي) أن أسوق فيها وأتفرغ للكوميديا بأه.. حد يلاقي ضحك وما يرزلش!.

وتزوجنا.. لتسقط صورة (البطل) وتنهار تمامًا.. فلم أعد ذلك الفتى الأول الأنيق الذي كان مجرد زيارته لخطيبته.. وفي إيده كيلو بسبوسة.. يعد خبرًا عاجلًا.. تعلن قبله حالة الطوارئ في بيت العروسة.. صار البطل.. متوفرًا.. مرزوعًا في البيت ليل نهار.. مرتديًا بيجاما كستور مكرمشة وسايب دقنه.. ولم يعد يلقي نكاتًا ولا إفيهات.. فهل يبدع الكوميديان في صالة خالية من الجمهور.. ولم يعد بطلنا يسمع من زوجته سوى أوامر صارمة من نوعية:

البس الشبشب.. ما تمشيش حافي.. عشان ما تعزقش برجلك احنا لسه ماسحين الأرض.

مفيش شرب سجاير في البيت.. ما باطيقش ريحتها.

ما تقوم تعمل لنا شاي.

شيل إيدك من مناخيرك.. إيه القرف ده.. اغسل إيدك بأه.

وهكذا.. تقمصت زوجتنا شخصية (الناقد) في حياتنا الزوجية السينمائية وهذا ما جعلني كنوع من المقاومة واعترافًا بالأمر الواقع.. وهو أنني لم أعد (البطل) قررت أن أكون أنا (المخرج).. طول الليل والنهار بازعق.. سكووت.. وبعدين.!. واستطاع هذا التجعير أن يؤكد شخصيتي كمخرج في حسم كثير من الأمور الخلافية.. بيننا وبين ابنتنا المراهقة التي تعتقد أنها تفهم أكثر منا جميعًا.. وأنها ليست مراهقة إطلاقًا وربما تكون هي التي أنجبتنا من أصله. وابننا الصغير (دلوعة أمه) الذي صار هو البطل الآن والنجم الأوحد والذي كنت لا أستطيع - برغم أنني المخرج - أن أوجهه أكثر من اللازم أو أعلق على أدائه الأوفر وهو يبكي ويخبط رجليه في الأرض.. بعد أن شبط في بالونة أو أي حاجة فارغة وأمه قلبها يتشحتف عليه وتحايله.. في مشهد مبتذل.. مبتذل بكل معنى الكلمة.

وفي مرحلة ما.. وتلك هي حالة الفن.. وناموس الحياة.. لم أعد مقنعًا بالنسبة لأهل بيتي كمخرج.. فقد تطورت التقنيات.. وصرت أنا «أولد فاشون».. بعد أن صارت زوجتنا هي المخرج والمؤلف والبطلة.. وكل شيء.. فانسحبت إلى حجرة المونتاج راضيًا وقانعًا بعملي في حجرة مظلمة

كمونتير.. وكنت أحذف أو أقطع من كلام المدام والأولاد العبارات والكلمات التي لا تضعني في صدام مباشر معهم.. ولما لم تكن طريقتي في التقطيع وترتيب المشاهد تعجبهم.. فقد جلسوا معي وقالوا لي ما معناه.. بابا.. إنت خليك منتج وبس.. ما لكش دعوه بحاجة.. إنت شغلتك في البيت ده تصرف وبس.

ولما دخلنا في مرحلة الجلوس في البلكونة في الشمس.. وقد شاب شعرنا.. ووقعت أسناننا.. وجلسنا ننظر إلى الأفق – مع إننا مش شايفين حاجة – بعد أن ضاع نظرنا أيضًا.. لنتأمل في عمق رحلتنا الزوجية.. منذ كنت بطلًا.. فإذا بنا نسمع بعض التعليقات الساخرة من الأحفاد الملاعين.. تقصدنا نحن.. وبشكل مباشر.. ثم نجد زوجتنا وأولادنا يضحكون هم أيضًا.. مما يؤكد أننا وصلنا أخيرًا إلى مرحلة (الكومبارس) الذي تقال عليه الإفيهات على المسرح.. وأخيرًا.. بعد أن انشغل الأحفاد بغيرنا وشالونا من دماغهم وخرجنا من المشهد تمامًا.. كانت النهاية إننا انتقلنا من مرحلة الكومبارس وصرنا جمهورًا.. هكذا صرت متفرجًا مشاهدًا عاديًّا من ملايين المشاهدين جالسًا وحدي.. لأتفرج على ولاد الكلب دول وهما بيبعزقوا في فلوسي!!!!.

* * *

نأتي بأه.. لكرة القدم.. لعبتنا الشعبية.. وأولى أولوياتنا.. ومكمن فرحتنا وسبب تعاستنا.. إذا انهزمنا طبعًا.. والملاحظ أننا إذا حققنا فوزًا في أي مباراة.. دائمًا ما نسمع تلك الجملة المتكررة دائمًا.. والتي لا بد وأنك سمعتها مثلي.. الناس عاوزه تفرح.. الكوره هي اللي بتفرح الشعب.. والعلاقة بين

حياتي الشخصية والحياة الكروية.. وثيقة ومتشابكة مررت خلالها بكل عناصر اللعبة ومراحلها.. ففي فترة الخطوبة كنت أشبه بلاعب موهوب فذ.. تتخاطفه الأندية.. وتنهال عليه العقود الأجنبية.. من فرنسا وإسبانيا وتركيا أيضًا.. ولكنني فضلت أن ألعب في مصر.. ولهذا ذهبنا لكي نخطب بنت بلدنا.. وقد ضحينا بالسفر إلى الخارج والسرحة مع بنات الاتحاد الأوروبي.. مفضلين الالتزام واللعب المحلي وكان هتاف الجماهير - أهل خطيبتي - هو المشجع الأكبر على اتخاذ هذا القرار المصيري في حياتي كلاعب فذ.

في فترة الخطوبة.. كانت أي لمسة أعملها تقابل بهدير من الإعجاب سواء من الآنسة خطيبتي.. أو من أهلها.. ولذا فأنا أعتبرها فترة تألق ونجومية حقيقية.. وتزوجنا.. ولم تعد لمساتي لها نفس الأثر على زوجتي أو أهلها.. وتحولوا إلى أولتراس يشتمني ويهاجمني بعنف إذا أضعت هدفًا.. أو تسببت دون تعمد في أي خطأ في المباراة.

وبعد فترة ليست بكبيرة.. لا أعلم لماذا قامت زوجتي بدور المدرب الأجنبي وأصدرت قرارًا لا رجعة فيه بأن تركنني على الخط جالسًا في الاحتياطي.. أتأمل بحسرة المباراة التي لن أشارك فيها.. وتلتقطني الكاميرا أحيانًا وأنا قاعد باشد في شعر دقني في ضيق.. وزهق.

وحينما اشتد أولادنا وصلب عودهم بعض الشيء.. بدأت أنظار زوجتي وأهلها تتجه إليهم.. مشجعين.. مهللين.. ذلك التشجيع الهستيري الذي كنت أستمتع به أيام الخطوبة وقد تجاهلوني تمامًا.. وبدأت المدام تهمس في أذني بأنه حان الوقت لاتخاذ قرار الاعتزال.

واعتزلنا.. وجلسنا في البيت.. نتفرج.. لكن خبرتنا الكروية الطويلة وأصداء هتافات الجماهير لنا.. يوم كُنا في الملعب.. كانت لا تزال تدوي في أذني.. وكان يجب أن أجد لي دورًا في هذه الحياة الزوجية التي لا ترحم وفي محاولة يائسة للاستمرار.. انضممنا إلى الاستوديو التحليلي للمباريات.. أهوه الكلام برضه أحسن من مفيش.. وصرت محللًا رياضيًّا محاولًا على استحياء أن أنقل إليهم خبرتي في ملعب الدنيا الكبير وتجاربي الإنسانية التي تصورت أنها ستفيدهم في مستقبلهم، ولكن حتى ذلك لم يعجبهم في البيت.. فصاروا يسخرون من آرائي العميقة.. وهكذا مرت حياتي الزوجية بكل المراحل الكروية من نجم إلى لاعب سيئ.. إلى مركون على الخط.. إلى معتزل.. إلى محلل.. إلى مشجع.. وأخيرًا صرت أنا نفسي (كرة) يركلونها بأرجلهم من هنا إلى هناك.

* * *

نيجي بأه للسياسة.. تلك التي صارت شغلنا الشاغل بعد أن قاطعناها آلاف السنين.. بعد أن اكتشفنا أن السياسة في منتهى السهولة واليسر لا أعرف لماذا كُنا نستصعبها هكذا.. ناس تؤيد وتقول كلامًا حلوًا وآخرون يعارضون ويقولون كلامًا سافلًا.. المؤيد يدافع عن الاستقرار والمعارض يدافع عن الحرية.. هذا ما يسمى بالحراك السياسي.. الذي ينتهي دائمًا بأن البقاء للأقوى.. تمامًا كما كانت الدنيا في عصور ما قبل التاريخ قبل أن تكون هناك سياسة ولا غيره.

والعلاقة بين حياتي الشخصية والحياة السياسية.. وثيقة.. متشابكة مررت خلالها بكل عناصر العمل السياسي ومراحلها.

في فترة الخطوبة.. كنت كمرشح للبرلمان.. أدخل بيت نسايبي بزفة.. حاملًا الهدايا والشيكولاته.. والوعود البراقة.. وما دخلتش يوم بإيدي فاضيه.. وقد تعهدت في برنامجي الذي قدمته لحماتي بأنني سأحل كل المشاكل.. من شبكة ذهب عيار 24 إلى شقة على النيل وموبيليا كلها من الخشب الأرو وقايمة وخلافه.. وتزوجنا.. وحصلنا على الحصانة.. وظهر الوجه الحقيقي لي كمرشح حينما اكتشفت زوجتي أن الشبكة الذهبية عيار 24.. هي ذهب صيني.. ما يجيبش تُلتمِيت جنيه وأن الشقة التي على النيل تحولت إلى أوضة وصالة في منشية ناصر.. وأن الموبيليا الأرو.. في حقيقة الأمر.. خشب صناديقي على قشرة أرو.

ولم تكن زوجتي تستطيع أن تفعل شيئًا.. فقد انتخبتني.. واتدبست وخلاص.. وصارت العصمة في يدي.. تعطيني الحصانة التي اكتسبتها الحق في أن أجيبها بالبوليس في بيت الطاعة.. إذا غضبت أو تمردت.

وأنجبنا.. أولادًا يروحون ويجيئون في الدايره.. التي أنا نائبها.. جالسًا منتفشًا كزعيم قبيلة أفريقية.. أتكلم طول الوقت.. ولا أعطي لأحد الحق في الكلام في حضرتي.

وكبرت القبيلة.. الأولاد ينجبون أولادًا.. وبناتًا.. أراهم يلعبون في الشارع تحت البلكونة التي أجلس فيها.. أراقبهم.. ثم أزهق منهم.. وأرش عليهم ميه.. أو أنزل أقطع لهم الكوره بالسكينة.. وهي رزالة طبيعية لا بد وأن يمارسها سياسي مثلي.. انتخبه الناس.. وجاء به الصندوق.. في أنزه وأشرف انتخابات ما دامت جابتني أنا.

ولكن شيئًا بدأت أسمعه.. صار يقلقني.. صوتًا خانقًا هامسًا يتسلل إلى أذني.. على فترات.. كـــان صوت الأولاد.. وهم يقولون في صوت واحد.. إيه الحل! إيه الحل! إيه الحل!

وضحكت من سذاجتهم.. ومن سطحية السؤال.. إيه الحل.. وهل يوجد حل لمشاكلكم يا ولاد الفقريه.. أنتم يا عبطا.. تبحثون عن الحل ماذا تعرفون عن السياسة حتى تسألوا هذا السؤال.. إيه الحل!. قال إيه الحل!. ولكن الصوت بدأ يقترب أكثر ويعلو أكثر.. وقد بدأت معالمه تظهر بوضوح.. إنهم لا يقولون إيه الحل!. إنهم يهتفون ارحل!. ارحل!. من يقصدون بهذا الهتاف.. هل يقصدون أمهم مثلًا.. والله لهم حق.. هي مطلعه عينهم.. أم يقصدون جاري الصفيق الذي ينتمي إلى الحزب الآخر.. ربما.

وهكذا مرت حياتي الزوجية بكل المراحل.. من مرشح إلى نائب.. إلى مسئول كبير.. إلى مخلوع.. وأخيرًا أجلس في حجرتي أتأمل حياتي الماضية ولا أحد يطرق على بابًا.. ولا يسأل عني.. ولا يقول لي إنت فين؟...

* * *

عرفتم لماذا يحب شعبنا كرة القدم.. والسياسة.. والفن؟ وعرفتم لماذا لا يخلو حديثنا من التعليق على هذه الأمور؟ لأننا جميعًا بداخلنا محللون رياضيون ومحللون سياسيون.. ونقاد فنيون.. وخبراء استراتيجيون وفقهاء دستوريون.. ومفكرون تنمويون.. وجيب أي كلمة وحط بعديها أون حتلاقي آلاف ماشيين وراها.

# فولتير

لا أحد في الدنيا كلها يستطيع أن يدعي أنه يفهم شعبنا.. وماذا يريد شعبنا وكيف يفكر شعبنا.. في نفس اللحظة وذات الأيام التي أقبل فيها الجمهور إقبالًا ساحقًا على فيلم شارع الهرم.. للمغني الشعبي سعد الصغير.. والراقصة دينا.. ولهما مني الاحترام عشان ما يزعلوش.. أقبل شعبنا إقبالًا ساحقًا أيضًا في الانتخابات البرلمانية.. واختار الإخوان والسلفيين ولهما مني أيضًا كل الاحترام.. والتقدير والتبجيل كمان.. عشان دول زعلهم وحش.. ورغم أن النخبة.. والمثقفين.. قد احتلوا الشاشات وصفحات الجرائد.. يهاجمون هؤلاء وهؤلاء.. إلا أن شعبنا العنيد.. برضه بيعمل اللي على مزاجه.

ولأنني لا أنتمي إلى حزب دينا أو الإخوان أو سعد الصغير أو السلفيين.. ولا حتى للنخبة.. مفضلًا بغشومية سياسية رفيعة أن لا أنتمي إلى أي طرف من الأطراف فينهال الهجوم علي من كل صوب وحدب.. وستتعدد التهم الموجهة إلى شخصي.. ما بين العلمانية والفسوق.. والتفاهة والسطحية.. ثم ستنتهي التهم إنني أساسًا إخوان بس ما بقولش.

ولأننا.. جميعًا.. نحب الكلام.. وصناعة الكلام هي أكثر الصناعات رواجًا في بلدنا.. فقد مر شعبنا بمراحل عديدة.. تطور فيها الكلام ووسائله.. فبينما كُنا قديمًا نتسمر بجوار الراديوهات لنستمع لأذاعتنا.. وهي تهتف بنا.. هنا القاهرة.. حتى لا ننسى ونفتكر إن احنا في ليبيا ولا حاجة.. وبعدها صرنا نتسمر أمام شاشات التليفزيون.. ثم نرغي في التليفون المحمول.. ثم على الإنترنت والفيس بوك وتويتر.. ومناقشات.. وصراخ.. واعتراضات.. لا تنقطع ثانية واحدة في اليوم.. بل إننا اخترعنا طقسًا إعلاميًّا فريدًا.. وهو أن كل ما قلناه بالأمس نستطيع أن نراه ونسمعه مرة ثانية حينما يكتبون على الشاشة (إعادة) وإذا لم تلحق الإعادة.. تستطيع أن ترجع وتشاهده مرة ثالثة.. على اليوتيوب.. وإني أرى أن التكنولوجيا تطورت بما يكفي.. وأبدعت في مسألة الكلام هذه فهي مع المواطن بمجرد ما أن يستيقظ إلى أن ينام.. ولكنها أهملت إهمالًا فادحًا فيما يتعلق بالتحاور معه وهو نائم وهي فترة ليست بالهينة.. من ست إلى ثمان ساعات.. يظل الزبون نائمًا فيها.. لو عرفنا الوسيلة التي نستطيع أن نصل إليه بها وهو نائم لنضخ برأسه الأفكار والمعاني والكلام الذي نريده سنصل إلى نتائج مبهرة بلا شك.. ولكن دعونا ننتظر.. فالعلم لا يتوقف عن التطور.

وسأتوقف هنا عند بعض العبارات التي يستخدمها مثقفونا في البرامج الحوارية.. لحشد أفكارهم وتدشينها والدفع بها لكي تسكن في رءوس العامة والبسطاء.. الذين هم.. ولا أعلم لماذا.. يعدون الشغل الشاغل لهذه النخبة التي لا تتوقف عن الكلام عنهم وعن مشاكلهم ومعاناتهم.. رغم أن هؤلاء العامة والبسطاء كل واحد منهم له ألف لسان.. والغريب.. أن الجمل

والعبارات التي ترد على لسان النخبة.. تنتشر كالنـــار في الهشيم ويستخدمها هــذا وذاك.. فتتكرر.. وتتكرر.. وتروح وتجيء أمام أعيننا كالذبابة التي تطن خلف أذنك.. وتلف.. لتراها فوق أنفك.. ولا تهش ولا تنش.

قال أحدهم في معرض حديثه عن فكرة التوافق.. بعد أن أعاد رأسه إلى الوراء.. واستعد بصوت أجش.. كأنه سيقول شيئًا خطيرًا.. مع ابتسامة غامضة تؤكد أن هذا الرجل عنده الكثير.. ولكن لسه ما طلعش اللي عنده.

قال للمذيعة.. شوفي.. فولتير قال إيه.. أنا أختلف معك في الرأي لكنني مستعد أن أفقد حياتي دفاعًا عن أن تقول رأيك.

ولا بد للمذيعة طبعًا أن تومئ برأسها إجلالًا وإعجابًا بكلام فولتير.. والرجل اللي جاب كلام فولتير.

طيب أنا راضي ذمتكم.. الجملة دي لو واحد زي حالاتي كان هو اللي قايلها.. كان حد عبرني؟!. هل كانت المذيعة ستبدي كل هذا الاهتمام؟ ولا عشان هوه اسمه فولتير يعني.. والسؤال الأهم.. هل يعرف شعبنا الذي أقبل إقبالًا ساحقًا على فيلم شارع الهرم وعلى الإخوان والسلفيين من هو فولتير هذا؟. لقد بدأت أشعر أنني أسأت الظن بشعبنا.. لم أكن أعرف أنه يؤمن بفولتير إلى هذا الحد.. لقد كانت هذه العبارة الفولتيرية تحديدًا هي القول الفصل في حوارات كثيرة شاهدتها بعد صخب وجدال وعراك.. ينزل أحدهم بجملة فولتير.. فيصمت الجميع.. حتى إن بعض الإسلاميين استشهدوا بها في معاركهم الحوارية.. بعد أن أدركوا أن شعبنا غاوي فولتير.. وطالما إن جملة فولتير لا تخالف الشريعة فيرخص باستخدامها لإفحام الخصوم.

وارتبط شعبنا ببرامجنا الحوارية.. وصاروا يتسمرون أمامها في المقاهي كأنها البديل عن مباريات كرة القدم.. واحتدمت المناقشات بين رواد المقهى.. كأنهم هم أيضًا على الهواء مثل من يتفرجون عليهم.. وشعبنا موهوب في التقاط العبارات واستخدامها بسرعة هائلة.. وقد وضع فكري القهوجي الشيشة أمامي.. ورص النار على الحجر وقال لي وهو يسخنها لي.. شوف يا بيه.. أنا ممكن اختلف معاك في الرأي.. إنما مستعد أفقد حياتي عشان انت تقول رأيك برضه.. دي الديموقراطيه ولا لأ.. قلت له وأنا أتلقف منه (اللي) قبل أن يخلص الحجر.. مظبوط يا فكري.

قال فكري وهو يعطس بشدة.. والله يا بيه شغال بقالي 24 ساعة.. ما روحتش.. البرد قاتلني.. مش قادر أصلب طولي.. الواحد مش عارف البلد دي رايحه على فين؟

وابتسمت فالعبارة الأخيرة أيضًا صارت من كلاسيكيات المرحلة.. هنا قلت لفكري.. إنت كده مش ح تقدر تكمل.. لازم تاخد أنتي بيوتيك مضاد حيوي.. ابعت جيب (فولتير 500) وخد حبايه كل 12 ساعة.

قال فكري.. ربنا يخليك يا بيه.. اسمه إيه قولتلي؟

قلت له.. فولتير 500 بس ما تاخدوش على معده فاضيه.

في اليوم التالي ذهبت إلى المقهى.. كان فكري يبدو نشيطًا ومرحًا.. ما أن رآني حتى هتف بي.. ربنا يباركلك يا بيه.. خدت فولتير 500 ونمت قمت زي الحصان.. بس الشريط بخمسين جنيه؟

وأدركت هنا أهمية أن تطالب الثورة بتأمين صحي للفقراء.. ما هو شريط الفولتير 500 لما يوصل خمسين جنيه الناس تجيب منين بصراحه.. والناس تعبانه.. وهذا ما جعلني أرفع مرتب (بخيت) السواق بعد الثورة تلتمائة جنيه دفعة واحدة كمطلب من مطالب الثورة.. عيش حرية وبخيت يزيد تلتميه.. وبخيت صعيدي من سوهاج.. يعمل معي منذ سنوات عديدة.. ولقد تغيرت لهجته معي قليلًا بعد الثورة.. فلم تعد العلاقة بيننا تلك العلاقة التي كانت بين البيه والسواق بتاعه وإنما صرنا نتعامل معًا كأننا شركاء في العربيه.. فقد شارك بخيت في الثورة.. واعتصم بالميدان ثمانية عشر يومًا يطالب برحيل مبارك.. وقد أخذ أجره مني كاملًا عن تلك الفترة وكان هذا أقل شيء ممكن أن أقدمه لمصر.. وقد زاد اهتمامه بالشأن السياسي كثيرًا بعد الثورة.. وصار يعرف كل الفقهاء الدستوريين والخبراء الاستراتيجيين والنشطاء السياسيين بالاسم والاتجاه الفكري وكنت أستمتع.. للحق.. بحديثه الثري وأنا راكب جنبه في العربيه.. ولم يكن يضايقني سوى أنه أحيانًا كان يقطع حديثه الممتع ويقول لي بلهجته الصعيدية الجميلة:

انزل شيل لي الطوبه اللي جدام العربيه دي عشان نعرف نطلع.

أو أن يقول لي:

أنا مش ح اعرف اركن هنا.. أنا ح اركن في آخر الشارع في الميدان وانت خلص مصلحتك وتعالى لي على هناك.

وهي أمور لا شك أنها صارت مقبولة بعد الثورة.. خصوصًا وأنا لا أستطيع أن أقول لبخيت.. ارحل.. خصوصًا بعد أن زادت قدرته على الحشد وقد هتف بي في وقت انتخابات الإعادة لرئاسة الجمهورية:

إنت مش ح تروح تنتخب.. ولاّ كنبه برضه؟

أجبته بنبرة فلولية مستكينة:

ح اروح طبعًا يا بخيت.. هو إنت ح تنتخب مين؟

قال بسعادة وثقة:

مرسي طبعًا.. هوه احنا كنا جومنا بثورة عشان نجيب شفيج.. ده العالم كله ع يضحك علينا.

وأعجبني تفكيره التليفزيوني الرشيق.. (العالم بيضحك علينا).. وتخيلت ألمانيا وهي مسخسخة من الضحك وبتقول لإيطاليا.. اسكتي.. مش المصريين بعد ما قاموا بثورة عاوزين يجيبوا شفيق.. وفطست إنجلترا على روحها من الضحك وهي تمسك بطنها.. لأ.. لأ.. ما تقولوش ح يجيبوا شفيق.. راحت فرنسا داخله عليهم وقالت لهم بتضحكوا على إيه ما تضحكوني معاكم.. كانت إيطاليا منفجرة في ضحك هستيري وتخبط برجليها في الأرض.. وتتكلم بصعوبة.. ها.. ها.. ها.. ها.. ها.. هايجيبو.. شا.. فيق.. قال!!. شربات المصريين دول.. هكذا وأنا شارد أفكر في العالم وهو بيضحك علينا.. أطلق بخيت نحوي سؤالًا مباغتًا.. ثوريًّا.. مباشرًا:

بجولك إيه يا بيه.. إنت شكلك كده ح تنتخب شفيج؟

وأسقط في يدي.. ولم أستطع أن أرد.. لو قلت آه.. ح يسيب العربية ع المحور ويمشي.. ويسيبني لايص في الإشارة وأنا نسيت السواقة.. لو قلت مقاطع.. ح ياكل دماغي.. يبأه نقول مرسي ونعدي المرحلة الانتقالية دي لحد بس ما نوصل البيت.. ولكنه لم يعطني فرصة للرد وقال:

شوف يا بيه.. فولتير جال إيه؟ أنا بختلف معاك في الرأي لكن أنا مستعد أموت عشان تجول رأيك ده.. صُح ولا مش صح؟

قلت له موافقًا:

صح طبعًا.

ويقولون إن شعبنا منقسم.. وإن الأمة مختلفة.. هذا كله هراء ومحاولات لتفتيت الوحدة في بلدنا.. فولتير.. الله يبارك له.. قام بالواجب.. ووحد أمتنا.. وهذه الغيرة والحسد المهني الذي كنت أشعر به تجاه فولتير يجب أن أتخلص منهما.. فولتير في النهاية زميل.. يمكن أن أختلف معه في الرأي ولكنني مستعد أن أموت في سبيل.. أن يغير رأيه هذا ويحل عننا.

# لا أنام

مشكلتي الأزلية.. ومكمن عذابي.. ومرضي المُزمن.. ذلك الشيء الذي تمارسونه حضراتكم بكل سهولة.. ودون أي معاناة.. بل ويمارسه الكلاب والقطط.. ومعظم الكائنات.. بينما أنا حينما فقط أهم بأن أفعله.. أصاب بحالة هستيرية مرضية وأظل في معاناة وكبد.. حتى تخور قواي تمامًا.. أنا يا إخواني.. لا أنام.. ولا أستطيع أن أنام إلا كما يسقط الثور بعد نزال عنيف في حلبة مصارعة الثيران في إسبانيا.. أحاول بكل الطرق.. أفعل كل ما نصحني به البعض.. أشرب ينسونا.. وآخذ دش ماء دافئ.. ولا أشد أعصابي.. وريلاااااكس خالص.. أفرد جسمي على السرير.. لا.. النوم على الجانب الأيمن يجعل النعاس أسرع وأيسر.. وأنام على جانبي الأيمن.. أغمض عينيك بأه.. وأغمض عيني كما قالوا لي.. .ولا تفكر في شيء.. وهنا تبدأ مشكلتي التي لا حل لها.. أحاول أن لا أفكر في شيء ولكن كيف هذا؟ كيف لا يفكر الإنسان في شيء.. المخ يعمل دون أن تتحكم فيه... إذًا عد من واحد لألف.. ولكن ببطء.. بالتأكيد ستنام قبل أن تبلغ المائة.. وأعد.. وأعد.. محافظًا على أن لا أفكر في شيء وأظل أتقلب يمينًا ويسارًا

ظهرًا وبطنًا.. ثم أضع رأسي بين مخدتين.. لكي تكتم على أنفاسي.. ومع ذلك.. لا أنام.. الكل نائم.. ومستريح إلا أنا.. لقد كنت أحسد نواب مجلس الشعب وهم ينامون في الجلسة.. ليس على حصانتهم البرلمانية وإنما على نومهم الهانئ وحالة الاسترخاء الرائعة التي أطلب من الله ولا يكتر على الله أن يهبني إياها.. كنت أحسد هذا المواطن الذي يقف بسيارته في أي حته ثم يفرد الكرسي إلى الوراء.. ويرجع بظهره.. ويذهب في سبات عميق.. أبهذه السهولة ينام الناس؟! كيف يتخذون القرار بهذه السرعة والحسم وهذا يضع يده.. فقط يده على خده.. ويترك رأسه تسقط على يده.. ويناااااام.. وأنا أظل في هذه المعركة الفكرية.. والجسدية.. متقلبًا مؤرقًا.. حتى يطلع الصباح.. ثم أسقط في النهاية كمحارب ظل ينازل الأعداء بسيفه في معركة طاحنة حتى سقط مغشيًّا عليه.. طيب يا سيدي.. نمنا أخيرًا ودخلنا في الغيبوبة المبتغاة.. ولكن هل تتوقف المعركة؟.. أبدًا.. أظل ألف وأنا نائم على السرير مثل البرجل.. وقد رفست الغطاء.. ولكمت المخدة في حركات دائرية عشوائية حتى أشعر أنني أكاد أسقط في هوة عميقة.. هنا أدرك أنني عند حافة السرير وأبدأ في السقوط فأمسك نفسي في آخر لحظة وأنا عند الحافة.. هنا.. أفيق.. أفيق تمامًا كأني لم أكن نائمًا منذ ثوانٍ معدودة.. عيناي مفنجلتان وقد تملكتني يقظة مفاجئة بغيضة.. وقد طار النوم من عيني تمامًا.. أنظر في الساعة.. لم أنم سوى ربع ساعة فقط.. أحاول أن أنام مرة أخرى.. ماذا أفعل.. أفكر في لا شيء وأعد من واحد لألف و... .

وذهبت إلى الطبيب.. وحكيت له كل شيء بصراحة.. ابتسم لي وقال.. هي مشكلة نفسية بالتأكيد.. أنت تخاف أن تنام.. تخشى النعاس.. فهل

أيقظك أحد وأنت صغير وأخبرك بخبر سيئ.. وأدركت أن الدكتور يحاول أن يطبق على حالتي نظرية فرويد (العالم النفسي الشهير) ولأنني لا أحب فرويد ولا أومن به.. فقد أدركت أن الفيزيته التي دفعتها راحت ع الفاضي.. هنا قلت له.. يا دكتور أنا لا أريد تفسيرًا للأرق.. أنا أريد علاجًا للنوم.. أريد أن أنام.. أعطني منومًا.. منومًا قويًّا.. حباية آخدها.. وأتلقح ع السرير ألاقي نفسي بئيت تاني يوم الصبح.. قال الطبيب.. أنت راجل كاتب وبتجهد ذهنك أنا عارف ده كويس.. وح اكتب لك على كل حاجة إنما.. وابتسم في خجل.. وتردد ثم قال.. على فكرة أنا ليا محاولات أدبية كده كنت عاوز أعرضها عليك.. أنا باكتب قصة قصيرة.. وعلى فكرة أنا من أشد المعجبين بيك.. وجلس.. وأخرج كشكولًا من درج مكتبه.. وبدأ يقرأ لي قصته الأولى.. كانت لغته للحق راقية ورفيعة إلى حد كبير.. وأفكاره جديدة.. ومبتكرة.. وللحق أيضًا أنني أثناء قراءته للقصة بصوته الهادئ الرخيم.. بدأت أشعر ببعض التنميل في أطرافي.. وأن جسمي بدأ يثقل.. أرحت ظهري إلى الوراء قليلًا.. وبدأت أحس أن النعاس قد بدأ يتسلل إلى عيني.. بل إنني فعلتها أخيرًا.. وتثاءبت.. ذلك التثاؤب الذي كنت محرومًا منه لسنوات طويلة.. وأفقت على صوته وهو يقول.. أستاذ يوسف.. إيه إنت بتنام مني؟!. ح اكمل لك القصة دي وأخليك تمشي علطول، وعاد يكمل قصته الرابعة بعد أن أفاقني تمامًا.. حينما.. أيقظني فجأة من تلك التعسيلة الممتعة التي كدت أشعر بها وكتب لي المنوم المطلوب وأخذته وخرجت وأنا أمني نفسي بليلة سوداء كُحل.. قلت للصيدلي.. حينما دخلت الصيدلية وأعطيته الروشتة.. معلش يا دكتور.. سؤال بس.. الدوا ده مالوش

آثار جانبية.. قال الصيدلي.. لا يا أستاذ.. هوه منوم قوي إنما.. ما يتشربش قبله منبهات ولا شاي ولا قهوة عشان مفعوله يشتغل.. ثم سألني بود.. ده حضرتك اللي ح تاخده!. قلت له.. نعم أنا.. قال لي الصيدلي ماجربتش تنام عادي من غير منوم.. أصل الأدويه دي برضه يعني.. ماذا أقول له؟! أنا راضي ذمتكم.. هو مش لسه قايل لي إن مالوش آثار جانبيه.. هنا حسمت تدخله في حياتي بكلمة واحدة.. ح آخده.

قال لي الصيدلي.. على فكرة.. أنا بحبك قوي.. وعاوز آخد رأيك في حاجة.. أنا باكتب شعر.. ولي محاولات كده.. كنت عاوز أقرالك آخر حاجة كتبتها.. وأدخلني عنده.. وجلست أمامه في الصيدلية على المكتب وأخرج بلوك نوت وبدأ يقرأ.. شعر عمودي.. ألفاظ جذلة مليئة بالمحسنات البديعية.. تمكن لغوي وفصاحة أعجبتني كثيرًا.. ولكن.. ماذا حدث لي.. لقد بدأت رأسي تسقط فجأة ثم أفيق بسرعة.. سقطت ثلاث مرات وهو يلقي لي قصيدته.. التي هنأته طبعًا بها.. وأخذت المنوم وجريت إلى البيت حيث أعلنت حالة الطوارئ.. أنا عاوز أنام.. وجاي عشان أنام.. يبأه كله ينام.. اقفلوا التليفزيون.. اللي عاوز يخش الحمام يخش دلوقت مش عاوز صوت خاااااالص.. الينسون الدافي.. والدش الساخن.. والكلفتة بالبطانية وفوقيها اللحاف.. ثم فتحت علبتي الأثيرة إلى نفسي (المنوم) وأخذت حباية ألقيت بها في فمي.. وشعرت أنني أخيرًا سأنال ما كنت أتمناه.. ولأنني شكاك فقد قلت لنفسي.. ربما تكون الحباية مفعولها ليس بالقوة التي أبتغي.. لنأخذ حباية ثانية حتى نصل إلى المأمول.. وأغلقت نور الأباجورة التي بجواري وأغمضت عيني تمامًا.. ومرت الدقائق بطيئة.. مملة.. ولا أنام.. مرت ساعة

ولا أنام.. لماذا لا أنام؟! ماذا أفعل لكي أنام؟ وتذكرت النصيحة الغالية.. لا تفكر في شيء.. وأنت الآن تفكر في أن تنام وهذا ما يؤرقك.. انزع هذه الفكرة من رأسك.. وعد من واحد لألف.. واحد.. اتنين.. تلاتة.. أربعة.

في العصر السابق لثورتنا.. كنت أسهر طول الليل وأنام بالنهار.. كان هذا هو نظام حياتي.. كنت أعرف أن الرئيس ينام مبكرًا.. وبمجرد أن ينام الرئيس ويشد اللحاف كنت أصحو أنا.. وأظل طول الليل من هذا المقهى إلى ذاك.. أتسكع في بلادي التي نام رئيسها.. فأشعر بأنني مواطن أوروبي.. لا يعنيني الرئيس.. ثم إن الشوارع الخالية الجميلة.. وأهل الليل اللطاف.. كلها عناصر كانت مؤيدة لقراري الشخصي الذي اتخذته.. وبعد ما قامت الثورة انعزلت عن الناس.. وتركت وسط البلد.. وأقمت بعيدًا في الصحراوي وحدي أنا وأسرتي الصغيرة.. في حياة ريفية كنت أحلم بها كثيرًا.. الخضرة والصباح المشرق وزقزقة العصافير. وكان يجب أن أقلب نظامي.. معتقدًا أنها مسألة سهلة.. ولكنني اكتشفت أن قلب نظامي هذا أصعب من قلب نظام الحكم الذي انقلب في بضعة أيام.. لكنني مع الطبيب والمنومات والنصائح والإرادة.. فعلتها أخيرًا.. صرت أنام مبكرًا جدًّا وأصحو مبكرًا جدًّا.. بشرط.. ألا يوقظني أحد أبدًا أثناء نومي حتى لا تعود الحالة المستعصية التي عانيت منها طيلة حياتي.. يا مدام.. يا أولاد.. أول ما بابا ينام.. نخرس كلنا.. ونخش ننام.. والغريب.. أن توافقًا حدث في بيتنا.. إلا.. من زوجتنا وهي إعلامية فتظل هي ساهرة طول الليل أمام التليفزيون لتتابع أخبار البلد.. والبرامج الحوارية.. وهي حرة في ذلك طالما

تفعل ذلك في حجرة بعيدة عن الحجرة التي أنام فيها.. وتغلق الباب عليها وغير مسموح لها بأن تعلي الصوت إلا بدرجة معينة حدث توافق أيضًا بشأنها.. ولكن بدأ الخلاف.. الذي أشهدكم عليه الآن.. في تلك الليلة التي أعلن الإخوان المسلمون فيها في الساعة الرابعة صباحًا نتائج الانتخابات الرئاسية.. ودخلت زوجتنا علينا حجرتي.. وأنا أغط في نوم عميق.. وهتفت بي.. اصحى.. مرسي نجح.. وبيعلنوا النتيجة.. وقمت مفزوعًا مثل كلب مرت بجواره سيارة وهو نائم في الشارع فداست على ذيله لأتابع النبأ الهام.. وطار النوم من عيني تمامًا.. في المرة الثانية.. دخلت زوجتنا نفس دخلتها السابقة.. وكانت الثانية صباحًا وهي تصرخ فيَّ وتهزني.. اصحى.. النائب العام الجديد يدخل مكتبه.. وقمت مذعورًا مرة أخرى مثل قطة كانت نائمة في الشارع بجوار الكلب الذي مرت سيارة وداست على ذيله وهو نائم.. وفي المرة الثالثة.. ضربت الباب بقدمها قبل الفجر وقالت.. اصحى.. تعالى اتفرج.. بيعملوا تصويت ع الدستور الجديد.. وقمت مفزوعًا مثل.. مثل إيه.. مثل إيه؟. أصل أنا خلصت القطط والكلاب.. وقمت مفزوعًا زي كل يوم عادي.. ما هي ما بئيتش مفاجأة يعني، وفي المرة الرابعة قمت مفزوعًا برضه عليها وهي توقظني بعنف.. إلحق.. الإخوان راحوا يأيدوا الريس عند الاتحادية.. وأفز من نومي كالعادة.. ثم في اليوم الثاني وبعد منتصف الليل برضه.. اصحى.. الريس بيخطب.

إخواني.. وهذا النداء والرجاء أوجهه لجماعة الإخوان المسلمين.. أحبكم جدًّا.. وأتمنى لكم كل النجاح والتوفيق.. ولكن بالله عليكم لماذا تعملون

دائمًا في هذا الوقت المتأخر؟!. دائمًا هكذا بعد نص الليل!. أليس النهار له عينان.. وبهذه المناسبة وحتى لا يفهمني البعض خطأ.. فإنني أهديكم أغنية الفنانة التائبة.. المحجبة الرائعة شادية.. يا سارق من عيني النوم إن نمت دقيقة تصحيني.

* * *

ولأنني أيام العصر السابق كنت قالب نظامي.. وبنام طول النهار وأسهر طول الليل.. ثم عدت بعد الثورة وقلبت نظامي وبئيت باصحى الصبح وبنام بالليل.. فإنني أفكر حاليًا.. وبصورة جدية.. في أن أقلب نظامي مرة أخرى.. نظام نومي يعني.. ولا أنام في الليل.. ولا أنام في النهار.. حد برضه عنده دم يجيله نوم في الأيام دي.

# أبو حنفي

مسرعًا.. متعجلًا.. ملهوفًا.. انطلقت نحو مستشفى الدكتور شريف بالمنيل لاستقبال ولي العهد ابني محمود.. صحيح أن عندنا بنتًا جميلة.. ندللها وتدللنا.. وصحيح أنني أنا بالذات متهم بالإفراط في التدليل.. وصحيح أنني كثيرًا ما صرحت شفاهة وكتابة أنني ضد أي نوع من أنواع التفرقة بين الذكر والأنثى.. تلك النظرة الليبرالية الحضارية التي انهارت فجأة بداخلي وأنا ذاهب لأستقبل محمود في اللحظة التي سيصل فيها إلى الدنيا هذا الذكر الذي له مثل حظ الأنثيين.. الوريث الذي سيلهف بهذا الوصول المفاجئ ضعف ما كان بين يدي ابنتنا التي كانت وحيدة ولم تصبح كذلك.. ها قد أتى من سيشكمكما.. أنت وأمك.

فوق الكوبري.. كانت هناك لوحة رقمية.. تبين للمواطن المصري تعداد السكان الذي يتغير كل 27 ثانية.. نظرت نحوها.. كان تعدادنا قد بلغ ثمانية وثمانين مليونًا وسبعمائة وأربعة وستين ألفًا وخمسمائة واثنين وسبعين نسمة.. وابتسمت في فخر.. فقد أصبح لي الشرف أنا ومحمود في أن يكون لنا صوت جديد في مكلمة الوطن.. بعد نصف ساعة وقفتها في الإشارة.. كان تعدادنا

قد بلغ ثمانية وثمانين مليونًا وسبعمائة وأربعة وستين ألفًا وستمائة وأربعين.. هكذا يبدو أن محمود جاء في يوم مزدحم جدًّا.

لا بد أننا شعب سعيد.. لا شك في ذلك.. مهما كانت صور المعاناة والعذاب والقهر.. إلا أن تكاثرنا بهذه الصورة المذهلة يؤكد أننا شعب سعيد.. وإلا إذا كان تعدادنا يزيد بهذه الصورة المليونية ونحن تعساء.. فماذا سيحدث - لا قدر الله - لو حلت مشاكلنا وصرنا سعداء فعلًا؟!. لن يصبح أمامنا من حل سوى احتلال الدول المجاورة وبناء مستوطنات لتوطين أولادنا فيها.. هذه الأفكار الاستعمارية جالت بخاطري وأنا واقف في الإشارة التي لا تتحرك.. وربما كان باعثها أيضًا أنني ذاهب لكي ألقي أول نظرة على (حوده).. الذكر الذي سيعدل كفتنا في البيت الذي به أغلبية نسائية متمثلة في البنت وأمها وبعد أن تأكد لي أنهما كانتا تقومان بابتزازي والتحايل عليّ بطرق عاطفية رخيصة من العناق والقبلات.. ولا أعرف حتى الآن كيف استجبت لهما.. وافتح دولاب أختك يا محمود لترى كم اللعب والملابس والعرائس التي دفعت دم قلبي فيها.. لتعرف يا بني.. أنك جئت في الوقت المناسب.. لكي تنتشل أباك من هذه المؤامرة.. وتحافظ على ماله الذي صار مالك أنت بالطبع يابو حنفي.

حينما دخلت الحجرة التي فيها أم محمود.. قالت لي حماتي.. مبروك.. محمود وصل.. وهوه دلوقت تحت في الحضّانة.. وبرد فعل طبيعي لرجل شرقي يدعي أنه ليبرالي قلت لها.. هي فين الحضانة؟ ولما لاحظت حماتي بفراسة أنثوية أنني لم أسأل عن صحة أم محمود.. أو أطمئن على ابنتها.. قالت بحنكة.. وما تقلقش مراتك كويسة زي الفل.. ولما كانت إجابتها على

سؤال لم أسأله.. فقد قررت أن أسأله حتى لا يؤخذ ضدي بعد ذلك في أي خناقة قريبة.. وسألتها.. المهم هي عامله إيه؟. هكذا حتى أثبت السؤال في المضبطة.

وجريت إلى الحضانة مهرولًا.. مهبولًا في حالة تجمع بين إحساس الرجل الشرقي – الذي يدعي أنه ليبرالي – وبين إحساس الإنسان الأول.. وقليل من مشاعر الهنود الحمر حينما ينتصرون في موقعة على الرجل الأبيض.. لم يكن قد مر على مجيئه للدنيا سوى خمس دقائق.. نائمًا على سريره الصغير في الحضانة.. وبجواره أكثر من عشرين سريرًا آخرين لأطفال من نفس الدفعة جاءوا لتوهم إلى الدنيا.. وتذكرت لوحة التعداد المعلقة فوق الكوبري.. لا بد أنها الآن قد كتبت رقمًا جديدًا.. نظرت نحوه وقد تضاربت بداخلي مشاعر كثيرة.. وهتفت به بصوت هامس تعمدت أن يكون خشنًا قليلًا حتى يتناسب مع لقاء بين ذكرين.

حمد الله ع السلامة يا حوده.

فتح محمود عينيه.. وأخذ ينظر نحوي دون أن يحدد تمامًا مشاعره تجاهي.. فهذا أول حوار يجريه في الدنيا.. وأنا أول من يحاوره.. فلا بد له أن يتوجس.

أنا أبوك يابو حنفي.. كنت متخيل شكلي كده ولا حاجة تانية.. أنا اسمي يوسف.. يوسف معاطي.. والاسم ده لازم تفتكره كويس يا حوده علشان ح ينفعك في مستقبلك وانت رايح تطلع بطاقة.. وإنت بتكتبه قبل رقم الجلوس على ورقة الامتحان.. لو ظابط قفشك في لجنة.. وقال لك اسمك إيه ياله؟. وأنا يا سيدي عندي 45 سنة.. وباشتغل كاتب.. والحمد لله أهي

ماشية.. مستورة.. وإلا ماكناش قدرنا نجيبك في مستشفى خاص في المنيل وأمك تقعد في سويت.. ويقطموا وسطي في الفاتورة.

أدار محمود وجهه وكأنه لا يريد أن يسمعني.. أو زهق من حديثي.. أبهذه السرعة تزهق يا محمود وتمل من حديث أبيك.. ده احنا لسه بنقول يا هادي.. انت زعلت علشان يعني باتكلم على الفاتورة والمصاريف.. العفو يا حوده.. ده مالك.. هوه أنا ليا حاجة.. معقول أنا أعايرك من أولها كده.. أنا أصلي حسيت ببصه فيها سخرية منك لما قلت لك إني باشتغل كاتب!. وبصراحه مش ح نبتديها كده يا محمود.. أنا ح الاقيها منك ولا من النقاد؟!. آه.. سوري.. أنت لا تعرف مَن النقاد؟. النقاد دول يا محمود ناس مثقفين جدًّا وبيشتموني كل يوم في الجرايد والمجلات.. أنا بس حبيت أديك فكرة من الأول عشان ما تتصدمش لما تكبر.. علشان كده أنا عاوزك لما تكبر إن شاء الله على قد ما تقدر اكره النقاد.

والله شبهك بالظبط يا أستاذ يوسف.. حته منك.. المناخير.. البُق.. العينين.

دي عنايات الممرضة اللي جابتني علشان أشوفك يا محمود.. والعشر كلمات اللي قالتهم دول ح تاخد فيهم خمسين جنيه.. مع إنها ما بذلتش أي مجهود في إنك تطلع شبهي إنما ده نظامنا هنا يا حوده في الدنيا علشان تبأه عارف.. أي كلمة حلوة بتتقال لازم تدفع تمنها.. الممرضة اللي فوق قالت لي يتربى في عزك.. أخدت عشرين جنيه.. والراجل بتاع الأسانسير وأنا نازل لك قال لي عقبال ما تشوف ولاد ولاده.. ولهف له عشرايه.. معلش يا حوده.. بكره ح تكبر وتتعود ع الحاجات دي.

أحب بأه يا حوده.. أعرفك ببقية العصابة اللي إنت ح تعيش معاها.. نبدأ بالست اللي إنت نزلت منها دي اللي هي أمك.. ح يطلعوك بعد شويه علشان ترضع منها.. هي بتعمل لبن حلو قوي.. ح يعجبك.. وح تحبه قوي.. إنما أحب أفهمك طبعها من الأول علشان ما يحصلش أي صدام بينك وبينها.. هي طيبة وبتحبك طبعًا.. إنما عصبية قوي.. وح تتخنق منك كتير وح تشخط فيك.. وممكن تمد إيديها عليك.. أنا مش باوقع بينكوا يا حوده.. إنما عاوزك بس تبأه عامل حسابك.. احنا ح نعتمد عليها شويه في الأول في مسألة الأكل عشان كده لازم نستحملها بقدر الإمكان لحد ما تتفطم.. وبعد كده يا معلم خلصت حاجتي من عند جارتي.. بالنسبه للفتره الأولانيه يا حوده.. من حقك تعملها على روحك في أي وقت ولا يعيبك إطلاقًا إنك تعمل حاجة زي دي ولا ينتقص من قدرك.. ومش عاوز الموضوع ده يأزمك نفسيًّا.. الدنيا اتغيرت دلوقت.. فيه بامبرز.. تلبسه وتقلعه ويترمي ولا يهمك.. ماكانش ده على أيامنا خالص.

إن شاء الله يا محمود لما تخرج من هنا.. ونروح البيت.. أنا ح اسيب أوضة النوم وح انام في الصاله.. لا.. مش موقف منك يا حوده.. أصل انت لازم تنام جنب مامتك وح تقعد تزن طول الليل وتعيط من غير أي مبرر.. وأنا لازم أنام علشان أقوم اشتغل.. مش قلت لحضرتك إن أنا باشتغل كاتب!.

أنا مش عارف إيه اللي بيضحكك كل ما أقولك إن أنا كاتب يا محمود.. تكونش أمك وهي حامل فيك كانت بتقرا المقالات اللي النقاد بيشتموني فيها؟!.

عمومًا أكمل لك بقية العصابة.. أنت ليك أخت يا محمود أكبر منك بتسع سنين.. بتحب هانا مونتانا وطول النهار قاعده تتفرج على الكارتون وخاربه بيتي طلبات.. وأنا عاوزك بأه أنت اللي تشكمها يا محمود علشان أنا باضعف قدامها شويه.. بقالها 9 سنين عماله تتدلع عليه وتبوس فيّ وتحضن فيّ.. وفي الآخر بتنفذ اللي في دماغها.. هي طبعًا من ساعة ما عرفت إنك جاي وابتدت تقلق وعماله تسألني أسئله خبيثه.

هو إنتو اح تحبوا محمود أكتر مني يا بابي؟!.

يا بنتي اهمدي.. ما كلكوا ولادنا.

يعني مش ح تجيب لي لعب تاني وح تجيب لمحمود؟.

شفت ابتزاز أكتر من كده يا محمود.. وأمها تاخدني على جنب وتقول لي أنا خايفه البنت تتأثر نفسيًا.. حاول تراضيها كده وتقرب منها أكتر.

والله يا حوده ميت جنيه ما بيكفوها مِراضيه.. شوف هي أختك أنا عاوزك تحبها طبعًا إنما برضه م الآخر حرّص منها.. احتمال تلاقيها جايه تبوسك ولا تدلعك وتقوم قارصاك في الخباثه كده من لباليبك.. أو لاسعاك قفاع السريع.. معلش استحمل وشد شويه في اللبن واجمد كده وبعد كده ح تطلع ده كله على جتتها.

حوده.. يمكن بعد كام شهر كده تلاقي حاجه طالعا لك في بُقك مضايقاك شويه.. ما تقلقش يا محمود.. دي اسمها سِنّه.. يعني أنت ح يطلع لك أسنان.. ح تقعد فتره كده تطلع لسانك لأي حد مهما كان قيمته أو مركزه الاجتماعي.. وأنا عارف إن دي مش سخريه من الناس ولا تقليل قيمتهم..

هوه مجرد استغراب من البتاعه اللي طالعا لك في بُقك دي.. الأسنان دي يا حوده طالعا لك علشان مستقبلًا يعني احتمال تحب تمزع ورك فرخه.. تشد حتة لحمه.. تمص عود قصب.. أهو تبأه حاجتنا معانا.. ولا الحوجه لأي حد.

وبالنسبة لأسنانك بعد ما تطلع إن شاء اللَّه وتنور بقك كده وتنزل عض في إيدي وكتفي على أساس بتجربهم طبعًا.. الأسنان دي ح تبتدي تقع تاني!! أيوه.. ح تقع تاني.. ح تسألني طيب مادام طلعت إيه اللي يوقعها تاني!! أقولك احنا نظامنا في الدنيا كده يا محمود.. إنما بعد ما تقع ح تطلع تاني وتثبت بأه إن شاء الله تكون أسناني أنا بأه هي اللي وقعت يا حوده.. وأنا أسناني لما ح تقع غالبًا مش ح تطلع تاني.

وبعون الله لما تقف كده على رجليك وتبتدي تجري وتبرطع في البيت.. ح اجيبلك واحده ست شغلتها إنها تجري وراك.. ست طيبه وحنينه جدًّا وبتاخد 350 دولار في الشهر.. هي شكلها ح يبأه غريب شويه وبتتكلم عربي مكسر وح يبأه اسمها تاو أو فال.. ومش عاوزك تتأثر يا محمود لو قمت في يوم ما لقيتهاش.. لإنها غالبًا ح تكون عامله لجوء سياسي للسفاره الفلبينيه علشان حضرتك طلعت عين اللي خلفوها.

طبعًا أنا كأب ح اعلمك الأخلاق والاحترام والأدب.. وتقول بليز قبل ما تتكلم.. وتقول ثانك يو لما أجيبلك حاجه.. وما تحطش رجل على رجل قدامي.. تلك النصائح التي ستتقبلها على مضض وتكرهها كما تكره البيض.. والتي أعلم جيدًا أنك ستنساها كلها وستتعلم السفالة على أصولها وح ادور أجيبك من الأقسام.. ربما تسألني الآن.. ولماذا تتعب قلبك

وتعلمني أشياءً لن أمارسها.. أقولك تذكر يا ابني إن أسنانك بعد ما طلعت في بُقك وقعت تاني.!. وبعدين أبويا الله يرحمه.. اللي هوه جدك يعني.. طلع عيني نصايح وتعليمات لما كرهت عيشتي.. عاوز تحرمني وأنا أب إني أطلع عينك وأكرهك في عيشتك.

لما تكمل ست سنين إن شاء الله يابو حنفي.. ح نبعتك مكان واسع كده فيه عيال كتير زي حضرتك.. المكان ده اسمه المدرسه أو زي ما مامتك دايمًا تصلح لي اسمه السكول والمدرسه دي فيها حوش كبير فيه جنينه.. قصدي الجاردن يعني.. أبوس رجلك يا محمود مش عاوز أي مصايب.. لا تخزق عين حد ولا ترمي حد بالطوب.. كل ده ح تعمله إن شاء الله بس لما تكبر وتمشي في المظاهرات.. علشان دول أصحابك يا بابا.. أيوه أصحابك.. لأ مش اخواتك.. هوه معقول أنا ح اخلف كل دول.!. وبعدين مش معقول برضه كل يوم وأنا باصحيك الصبح علشان تروح السكول ترفسني الرفسه دي.

في ابتدائي بأه يا حوده.. ح نبتدي ناخدها جد شويه.. أيوه.. اتعدل لي كده واسمعني كويس.. ح يدرسوا لك في المدرسة عربي وحساب وعلوم.. وحاجات سخيفة جدًّا.. وح تبأه قاعد بتنام في الفصل من كتر ما إنت مش طايق اللي بتسمعه.. الحاجات دي أنا عاوزك تحفظها صم ما يهمنيش إنك تفهمها خالص.. لإنها غالبًا مش ح تفيدك بعد كده خالص.. زي أسنانك اللي كانت طلعت وبعدين وقعت دي.. مش أنا وانت مسكنا (السِنّه) وروحنا قايلين يا شمس يا شموسه خدي سنة النونوسة وادينا سنا جديدة ناكل بيها البسبوسة.. أهو ده اللي ح نعمله بالنسبة للمواد اللي ح تدرسها في ابتدائي.. بعد ما تنجح إن شاء الله.

في إعدادي بأه إن شاء الله يا محمود يديني ويديك طولة العمر.. ح تحس بأحاسيس غريبة شوية.. ح تحس إن صوتك بدأ يجعر من غير مناسبة.. وشوية شعر كده ح تلاقيهم عمالين يتنطوروا في جسمك وأي بنت تعدي قدامك ح تلاقي رقبتك راحت ملووحة لوحدها كده وباصص لها.. كل دي حاجات كلنا مرينا بيها وقابلينها.. بس بالنسبة لريم اللي ساكنة قدامنا وبتقعد ساعات في البلكونة في الحر بقميص النوم مش هي دي زوجة المستقبل يا محمود.. صدقني.

أولًا لأنها في الإعدادية وانت لسه في تانيه.

ثانيًا لأنها أطول منك.

ثالثًا لأن انت لسه صغير.. وانكتم بأه أحسن أديك على بوزك.

في الثانوية العامه.. أنا عارف إنك ح تجيب لي ضغط وسكر وح اشوف منك الويل.. ما هو مش معنى إن ريم اتخطبت تعيش لي مأساه يا روح أمك.. وقاعد قافل الأوضة على نفسك ومش عاوز تفتح كتاب.. يا ابني يا حبيبي.. خلص الثانوية العامة وخش الكليه وبعد كده إعمل اللي انت عاوزه.. المدرسين داخلين خارجين يقولولي.. سرحان.. مش مركز.. أعمل لك إيه يا محمود؟!. فين دوا الضغط يا اخواننا.

ح ندخلك كلية بالمصاريف طبعًا يا بو حنفي.. لإن أزمة ريم العاطفية ماخليتكش تركز كويس في الثانوية العامة.. والمجموع اللي جيبته أخجل إني أذكره في مقالي دلوقت.. ما هو أنا قدري إني أقعد أدفع لك يا حوده كل اللي شقيت وطلع عيني عشان اعمله طول عمري كأني كنت باكتب لك إنت...

أنا مش فاهم ليه كل ما اجيب سيرة إني باشتغل كاتب تبتسم الابتسامة الحقيرة دي؟!.

اتخرجت من الجامعة وخلاااااص.. يااااااه.. آخد نفسي بأه.. يا عم أنا كده عملت اللي عليا وعداني العيب وقزح.. ياللا.. شق طريقك بأه يا محمود.. محمود أنا بكلمك.. شق طريقك.. ما بتشقش ليه يا حوده؟! نعم!. لا بأه.. اللي فات كله كوم واللي جاي ده كوم تاني.. أي نصيحه نصحتك بيها أنا أنصحك ما تعملش بيها.. إلا النصيحه اللي جايه دي.. شوف يا محمود.. اعمل اللي انت عاوزه.. اشتغل محاسب في شركة.. مهندس في مصنع.. العب كوره.. اشتغل نجار.. سواق تاكسي.. اشتغل أي حاجة.. إنما حسك عينك أشوفك ماسك ورقه وقلم وبتفكر ولّا بتكتب.. اعمل أي حاجة إلا إنك تشتغل كاتب.. أنا بقولك أهوه.. ابعد عني.. انجح أو افشل.. بس بعيد عني.. وخلّي بالك.. لو حاولت تكتب مش بس ح اعترض على محاولتك.. لأ.. أنا حا احاربك أنا بقولك أهوه.. أسوأ شيء في الدنيا إنك تكررني.. إنك تحاول تمشي في نفس الطريق اللي أنا مشيته.. أنا مش فاهم ليه كل ما تيجي سيرة الكتابة تدور وشك وتبص الناحية التانية وتضحك.. بتضحك على إيه؟

آه سوري.. أنا فهمتك غلط.. إنت بتضحك للبنت الأموره اللي نايمه في السرير اللي جنبك.. من أولها يا محمود!. يا عم مش عاوزين مشاكل في المستشفى ده انت لسه ماطلعتش من الحضانة.. وبعدين يا أخي اعمل لي احترام ده أنا واقف.

إنما والله عنايات الممرضه عندها حق يا حوده.. يا أخي قورتك بالملّي قورتي بس على صغير والمناخير هيه.. حتى التكشيره بتاعتك دي كأني لسه

صاحي من النوم متعكنن ومش طايق حد في البيت.. وعلى فكرة الابتسامه الساخره اللي انت بتبص لي بيها دي مع إنها مش مريحاني.. إنما أنا ما انكرش إنك وارثها عني.. الله.. أجمل حاجه في الدنيا لما الواحد يقف كده ويتفرج على جيناته..

وأنا واقف باتكلم مع محمود في الحضانه.. دخل الدكتور شريف وقال لي:

مبروك يابو محمود.. واد زي القمر.. بس معلش.. نسخه من مامته.

قلت له معترضًا أشد الاعتراض:

مامته إيه يا دكتور شريف.. ما هوه.. قدامك.. ده نسخه مصغره مني.. ده أنا بالملّي بس على صغير.

قال الدكتور شريف مندهشًا.

إنت بتعمل إيه هنا؟!. محمود ابنك خرج من الحضّانه من الصبح وطلع فوق مع مامته في السويت.

نظرت نحو الطفل الذي كنت أكلمه وقلت للدكتور شريف مصعوقًا.

أمال ده مين؟!.

قال الدكتور شريف ضاحكًا:

دي.. دي بنت مش ولد.. ابنك فوق.. اطلع علشان تشوفه.

مسرعًا.. متعجلًا.. ملهوفًا انطلقت إلى الدور العلوي لاستقبال ولي العهد الذي لم يسمع كلمة واحدة مما قلت له في معرض ترحيبي بقدومه السعيد.

**25 يناير 2009**

# حلاق الشعب

الأوسطى حنفي الحلاق.. حلاق الرئيس السابق.. لا يعتبر من الفلول.. ولا يقبل أن يقال عنه ذلك.. وليس معنى أن الرئيس أصبح سابقًا.. أن الأوسطى حنفي صار حلاقًا سابقًا.. تستطيعون أن تخلعوا الرئيس.. ولكنكم لا تستطيعون أن تخلعوا المشط والمقص من أصابع الأوسطى حنفي.. سيظل يحلق.. ويحلق.. ويحلق.. ولكنه سيصبح في العهد الجديد.. حلاقًا للشعب أو بالأحرى حلاق الثورة.

منذ خمسة عشر عامًا أو أكثر كلموه.. كان الرئيس قد انقلب على حلاقه القديم الشهير.. ولم يعرف أحد سبب هذا الانقلاب وقتها.. يقال إن حرم الرئيس هي التي أوصت بالتخلص منه بعد (حلقة) لم تعجبها للسيد الرئيس.. ووقع اختيار الأجهزة.. على الأوسطى حنفي وأرسلوا له سيارة أخذته إلى قصر الرئاسة.. كان قلبه يكاد ينفطر من فرط السعادة.. والتوتر.. حقًّا! سيحلق رأس أكبر رأس في البلاد!. كيف؟!. سيفرك له شعره كما يفعل مع المواطن العادي.. ثم يبخ له الماء على شعره! عادي كده؟!.

وارتعشت يداه وهو يتخيل ذلك.. فقرأ المعوذتين والسبع آيات المنجيات..

كان الأوسطى حنفي قد أحضر معه بالطبع عدة جديدة.. ماكينة ألماني لم تمر على قفا في البلد.. وهل يمكن أن تمر الماكينة على قفا المواطن العادي ثم تمر بعد ذلك على قفا الرئيس.. المشط أيضًا جديد من العاج (تركي).. اشتراه خصيصًا لهذه المهمة الوطنية وأسنانه ليست متقاربة بالدرجة التي تعرقل الشعر بينها.. فلا يصح أن يمشي المشط فوق رأس الرئيس ويتوقف عن سيره لأي سبب من الأسباب.. والمقص والموس كلاهما لم يمس ومستوردان طبعًا.. فلا مجال هنا لأي غلطة.

المشكلة الحقيقية في الصبغة.. لو سقطت نقطة واحدة على جبهة الرئيس أو على قفاه فالعاقبة ستكون وخيمة بالتأكيد.. لا.. لن يستخدم الفرشة الكبيرة.. سيستخدم فرشة صغيرة تايواني.. فرشة دقيقة.. كأنه يرسم لوحة فنية.. خط خط.. وشعراية شعراية.. وهل هناك لوحة أبدع من رأس الرئيس؟

وأفاق من شروده.. والرجل الذي يرافقه من مكتب الرئيس يهتف به:

جاهز يا حنفي؟!

وابتسم حنفي بكل ثقة.. وقد استجمع كل قواه وشجاعته وقال بلهجة عسكرية قاطعة:

تحيا مصر يا فندم.

كان يشعر وقتها أنه جندي من جنود المظلات يصدر له الأمر بالقفز من الطائرة.. وها قد جاءت اللحظة التاريخية.. سيدخل ليمسك برأس الرئيس.. ويشتغل.

لن يطلب حنفي أجرًا بالطبع.. فقد كانت أغنية عليا التونسية تتردد في ذهنه طول الطريق ما تقولش إيه اديتنا مصر.. لأ قول ح ندي إيه لمصر.. والرئيس هو رئيس مصر فأقل شيء يمكن أن نقدمه لمصر في شخص الرئيس.. أن نحلق له الحلقة التي تجعله يقابل الرؤساء الأجانب وهو مرفوع الرأس.. واثق الخطوة يمشي ملكًا.. وقال حنفي لنفسه بثقة.. أنا حلقة أوباما الأخرانية دي ما عجبتنيش خالص!. ولا تخش دماغي بتعريفه!. واحنا بأه ح نوريله حلقتنا شكلها إيه.!. شيء واحد فقط.. إذا سمحوا له به.. في مكتب الرئاسة.. سيكون بمثابة النقلة الكبرى في حياته.. صورة.. صورة مع الرئيس.. وهو واقف خلفه يحلق له شعره.. هم طبعًا لن يقبلوا ذلك فقد صدعوا رأسه بالتعليمات.. لا تتكلم وأنت تحلق للرئيس.. لا تفتح فمك.. لا تطلب منه شيئًا.. ولكنه سيطلبها.. سيطلبها من فخامة الرئيس.. سيختار التوقيت المناسب الذي يطلبها منه فيه.. سيهمس له وهو يشد شعر خده أو أذنه بالفتلة.. فتكون المسافة قريبة جدًّا ويمكن أن تسمح بذلك.. ولأنني أحسن واحد يشد فتلة في مصر كلها فهذا بالتأكيد سيسعد الرئيس.. إذا ابتسم.. أو علق على ذلك.. سأطلب منه الصورة.

وصار حنفي حلاق الرئيس الخاص.. وصار يسافر معه أحيانًا.. وصار للحق أيضًا خبيرًا في رأس الرئيس.. يعرف ميعاد الشعرة الملعونة التي تتخلى مبكرًا عن الصبغة.. فتظهر بيضاء في فوديه أو في جبهته.. قبل باقي الشعر.. فيجري مسرعًا.. ويصبغها بكل مهارة ودون أن يشعر أحد.. حتى الرئيس نفسه.. بل لقد صار البعض يعتقد أن الرئيس شعره أسود فاحم فعلًا وأنه لا يشيب.. كل هذا لأن حنفي لم يكن يعمل بدافع مادي.. وإنما بدافع وطني

أولًا وأخيرًا.. وظفر حنفي بالصورة التي طالما تمناها والتي تجمعه بالرئيس.. أخيرًا سمحوا له بها.. والحق أن الريس هو الذي أجبرهم على التقاطها.. أخذها حنفي وتأملها وكأنه يحلم.. ما أروعها!. واقف هو خلف الرئيس.. والرئيس يبتسم.. ولكن لماذا لم أبتسم أنا أيضًا؟ هكذا كان حنفي يهتف لنفسه ما لي هكذا كأنني أقف في عزاء متجهمًا مكشرًا وكأن عليّ غضب الله.. أنا لا أنكر أنني كنت مرعوبًا.. ولكن هذه صورة لن تتكرر.. ولا أستطيع أن أطلبها مرة ثانية.. كانت صورة صغيرة.. كارت.. وفي مكتب الرئيس أمروه ألا يكبرها.. وكانوا في تحذيرهم له قاطعين.. هذه صورة شخصية لك سمح لك بها الرئيس.. مفهوم.

ووضعها في جيبه بعد أن غلفها بالبلاستيك.. وصار يمشي بها.. لم يعد يحمل بطاقة شخصية ولا رخصة قيادة.. ولا أي شيء.. ألا تكفي صورته مع الرئيس؟!

وابتسم حنفي حينما اعترضته لجنة على كوبري أكتوبر وكان معه المدام والعيال.. واقترب منه الظابط الواقف في اللجنة وسأله:

رخصك.

قال حنفي بثقة:

مفيش رخص.

قال الظابط متوعدًا:

ممكش رخص؟!

قال حنفي بثقة أكبر تصل إلى الرزالة:

ولا بطاقة شخصية كمان.

قال الظابط:

ده إنت مستبيع بأه.. طيب انزل لي يا روح أمك.

هنا أخرج حنفي صورته مع السيد الرئيس وقال للظابط:

تنفع دي؟!

نظر الظابط إلى صورة الرئيس وحنفي واقف خلفه.. واندهش الضابط وبلع ريقه بصعوبة فهمس له حنفي في أذنه وهو يضع ذراعه على كتفه دون أن ينزل من السيارة:

حلاق الرئيس.

قال الظابط باسمًا:

اتفضل يا باشا.

وهكذا ظلت صورة الرئيس تفتح الأبواب المغلقة لحنفي.. في كل مكان.. الدولة عملت شقق للعرسان.. فذهب إلى وزارة الإسكان.. وطلع بالصورة.. فحصل على ثلاث شقق دفعة واحدة.. جمعية تقسيم وتوزيع أراضٍ أعلنت عن بيع بعض القطع.. فذهب حنفي.. وخرجت الصورة من جيبه كأنها مصباح علاء الدين.. وأخذ قطعتين ع الشارع.. وهكذا ظل يدعك الصورة فيحصل على ما يريد.. وانتقل حنفي.. صار يعيش في المهندسين.. وأمام العمارة التي يقطنها كان له مكان مخصوص يركن فيه سيارته ولا أحد يجرؤ على أن يناقشه في ذلك.

وقامت الثورة.. وخلع الرئيس.. وصار رمزًا للطغيان والديكتاتورية والعهد البائد ورفع الثوار الأحذية.. وملايين الثوار كانوا يهتفون.. ارحل..

ارحل.. وحنفي لم يكن يشغله سوى شيء واحد كان يؤرقه.. فهو منذ عمل مع الرئيس.. أحضر له عدة جديدة مستوردة تركها هناك في الرئاسة بالطبع.. وظلت هناك.. فهل الظروف تسمح له بأن يروح يجيب العدة.. أم يتركها له وحار ونار في جتته لوح يقبلها على نفسه!.

بعد عدة أشهر من خلع الرئيس.. كان حنفي ضيفًا على أحد البرامج التليفزيونية.. ابتسم حنفي.. وهنأ شباب الثورة على عملهم المجيد الذي يعد أعظم ما حدث في تاريخ بلدنا وترحم طبعًا على الشهداء.. وأنهى كلمته بالجملة التي كان قد أعدها جيدًا.. وقال.. هو ده الشعب المصري.

وحينما سألته المذيعة عن علاقته بالرئيس حينما كان يحلق له.. قال:

الراجل ده يا أستاذه.. أنا عمري ما طيقته ولا طقت دماغه.. كنت أبأه رايح أحلق له وأنا كأني شارب شربة زيت خروع.. أحلق له ازاي وأنا باكرهه يا ناس.. إنما حكم القوي.. دول كانوا مفترين يا أستاذه.. كانوا يخلوني أسيب الزبون اللي في إيدي وأنا واقف في المحل.. قال إيه الريس عاوز يصبغ.. عاوز يخف سوالفه شويه.. أشد له لا مؤاخذه شعر مناخيره بالملقاط.. شفتوا الظلم.. وعليا النعمه ما أخدت مليم منه.. كان غاوي يحلق بلّوشي.. كان بيشتغلني زي ما كان بيشتغل الشعب.

قالت المذيعة وهي تردد السؤال الذي لقنها إياه معد البرنامج من الكونترول:

طيب بصراحه كده يا أوسطى حنفي.. شعر الرئيس.. كان متعب في الحلاقه ولا كان سهل؟!

قال حنفي مبتسمًا ابتسامة منفعلة:

أنا سعيد بسؤالك ده.. فروة راسه ذات نفسها كانت خشنه.. عامله زي صوف الخروف كده.. ما تمشيش مع المشط.. سيبك من الشعر السايح اللي كنتوا بتشوفوه ده.. ده شغلنا بأه.. مكوه وسشوار وغُلب.. وكان عنده تعلبه في راسه يمكن الشعب ماكانش بياخد باله منها.. لأن احنا كُنا بنداريها بالصبغه.. هوه أصله كمان كان زارع شعر في ألمانيا.. كان كل ما يروح يزرع له شويه.. وكله من فلوس الشعب.

فسألته المذيعة:

ليه يا أوسطى حنفي حاسه بمراره في كلامك وكأنك ندمان فعلًا إنك كنت بتحلق للرئيس المخلوع؟

قال حنفي مبتسما:

أنا سعيد إنك سألتيني السؤال ده.. أنا ح اثبت لمصر كلها إني ماكنتش طايق.. وبالمستندات.

وأخرج حنفي صورته مع الرئيس.. وقال:

يا ريت الكاميرا تقرب بس من الصوره.. أنا واقف وراه أهوه بحلق له.. شايفين هو مبسوط ازاي.. والنبي يا ريت المصور يخش عليا.. شايفين أنا زهقان وكفران ازاي؟ ماكنتش باطيقه.. وأنا باعلن من هنا.. من برنامج حضرتك للناس كلها.. أنا مش ح احلق لأي رئيس بعد كده إلا إذا كان منتخب من الشعب في انتخابات حره ونزيهه.. ولعلم سيادتك أنا ياما كنت باعارضه وأنا بحلق له.. كنت باديله كلام زي السم.. إنما مين اللي يحس

يا أستاذه.. ده أنا مرة بابخ له شعره بالبخاخه عشان يطرى في إيدي.. أعرف أسرحه.. نقطة مية جات في عينه.. قعد يزعق ويهلل.. تقوليش مية نار.. بس الحمد لله.. أدينا خلصنا منه وربنا يخلّي شباب الثورة.. على فكرة أنا من أول يوم وأنا في الميدان.. من يوم 25 يناير بحلق لشباب الثورة مجانًا.. حتى فيه واد كان شعره منكوش وهايش قد كده كان رافع له يافطه بيقول له.. إنجز عشان أحلق.. روحت له وعملت معاه الصح.. تشوفيه دلوقت ما تعرفيهوش.. ما هم ولادنا.

ثم أخرج صورة من جيبه.. وهو يعانق أحد ضباط الجيش واقفًا بجواره على الدبابة ويقبله وقال.. آدي رجالة مصر صحيح.. الجيش اللي حمى الثورة.. وأنا أمنية حياتي أحلق لسيادة المشير.

* * *

لم أعرف شيئًا عن الأوسطى حنفي بعد هذا اللقاء.. ولم أره على أي من الشاشات ولكنني علمت من بعض الأصدقاء.. أنه يحاول جاهدًا ويعمل اتصالات كثيرة محاولًا أن تستعين به الرئاسة في أن يحف الشارب وينسق اللحية.. وهو مواظب على الصلاة في كل يوم جمعة في المسجد الذي يصلي فيه الرئيس.

# في الطابور...

عندما زحف الجنرال فرانكو أثناء الحرب الأهلية في إسبانيا إلى العاصمة قال إنه يزحف بخمسة طوابير.. وراءه أربعة والخامس في مدريد.. فعرف الناس الطابور الخامس الذي فعل الأعاجيب في كل البلدان التي اجتاحها الألمان.. أما الطابور الأول فهو ذلك الطابور الخفي الذي اتخذ التجسس حرفة أو مهنة.. والطابور هو طقس إنساني وحيواني في نفس الوقت.. فأنت ترى جحافل النمل تمضي أمامك كما ترى قطيعًا من الأفيال وهي تمشي في الغابة في طوابير منظمة لا تقل إحكامًا ودقة عن تلك الطوابير التي كان يقودها هتلر وموسوليني.. كنت في باريس وكان طابور الطالعين إلى برج إيفل والواقفين أمام شباك التذاكر يبلغ طوله نفس طول برج إيفل تقريبًا.. وفي متحف اللوفر كان طابور المنتظرين أمام لوحة الموناليزا يصل إلى الشارع خارج المتحف.. ولما طلبت مني ابنتي أن تأكل آيس كريم وقفنا في طابور الآيس كريم الطويل.. وحينما رغبت ونحن في (يورورديزني) أن تركب المرجيحة كان أمامنا في الطابور ما يربو على الألف نسمة.

واقف في الطابور أنا وأمامي زوجتي وأمامها البنوته مرتديًا جاكيت أسود طويلا وقبعة مع كوفية سوداء طويلة منتشيًا بتلك اللحظة الباريسية التي غمرتنا حتى إنك لو شاهدتني لقلت إنني أبأه ابن خالة ساركوزي.. الشيء الذي أدهشني هو تلك الحالة التي كان عليها الواقفون في الطابور.. كانوا جميعًا مبتسمين سعداء في وقفتهم الطويلة.. وخلفي – في الطابور – كانت تقف حسناء باريسية رائعة الجمال نفذ عطرها الأخاذ إلى نخاشيشي فالتفت لأحدد مصدر الرائحة العطرة.. فإذا بي أمام قطعة فنية مكتملة الأنوثة ليس بها من عيب واحد سوى أن خلفها – في الطابور برضه – وغد فرنسي يحيط خصرها بذراعيه في هيام وهي مستسلمة لتحسيسه عليها في منظر لا يليق بطابور محترم أنا – شخصيًّا – واقف فيه.. المدهش أن المنظر سالف الذكر الذي تحول بعد ذلك إلى قبلة طويلة ساخنة لم يلفت نظر أحد من الواقفين سواي.. وأفقتُ على صوت ابنتي وهي تهتف بي.. بابي.. إنت بتبص على إيه؟

فصرخت فيها صرخة أبوية تربوية بصي قدامك يا بنت.. قالت زوجتنا في استدارك له مغزاه.. ما تبص قدامك انت!. وحسمًا للموقف وحتى لا يتطور أكثر من ذلك أمام الشعب الفرنسي.. نظرت أمامي متجاهلًا ما يحدث ورائي تمامًا وقد ملأني حقد دفين على ذلك الوغد اللي نازل لهط من خلفي دون أي اعتبار لمشاعر سائح مثلي أتى من العالم الثالث ليرى برج إيفل.

«بان» سريع لتتوقف الكاميرا.. أعني عيني.. بل ليتوقف كل شيء أمام معجزة فنية أخرى بل أنقح من تلك الواقفة خلفي بين ذراعي الوغد.. وحدها – في الطابور – تقرأ في كتاب وقد انسدل شعرها الذهبي على جبهتها البيضاء الناصعة.. مستغرقة تمامًا في كتابها الذي يكاد يذوب بين

يديها البضتين.. تُرى ماذا تقرئين يا سيدتي؟. محظوظ هذا الكاتب بالتأكيد.. آه لو أستطيع أن أعرف اسم هذا الكاتب الوغد؟!. ولكن ما هذا؟!. لا.. لا يمكن؟!. إنها تقرأ كتابًا لي.. لي أنا!. هنا في باريس!. لم أصدق نفسي وأنا أرى اسمي على الكتاب الذي في يديها.. ولكن يجب أن تعرف قارئتي الفاتنة أنني هنا.. على بُعد خطوتين منها.. كيف ألفت نظرها؟!. سأكح.. بعضهم ينظر لمن يكح.. وأكح.. وأكح.. ولكنها لا تنظر.. يا قارئتي العزيزة.. أنا هنا.. هنا خلفك.. آه.. بدأت تنتبه لي.. إنها تنظر نحوي وتبتسم.. تقارن بيني وبين الصورة التي على ظهر الكتاب.. لقد عرفتني أخيرًا.. ها هي آتية نحوي.. لا بد وأن تتفهم زوجتي مثل هذه الأمور.. أنا كاتب ولي قراء ويجب طبعًا أن أكون لطيفًا معهم.. إن الاحتكاك بين الكاتب وقرائه مسألة غاية في الأهمية.. اقتربت مني الباريسية الفاتنة وقالت بخجل فرنسي يؤكد الفارق بينها وبين تلك الفاجرة التي ورائي (صديقة الوغد).. بونجور مسييه.

انحنيت انحناءه فرنسية أنيقة وقلت لها بونجور مدام وحتى أقطع لها الشك باليقين أشرت نحو الكتاب.. ثم أشرت نحو نفسي.. وقلت لها بفرنسية ركيكة على قدي.. وي.. جو سوي.. وإذا بابنتي تنفجر في ضحكة عالية.. مامي.. الحقي بابي بيكلم نفسه!.

آه.. الطابور لا ينتهي ولا أحد يريده أن ينتهي.. الكل مستمتع هذا يقرأ وهذه تسمع موسيقى والوغد يلهط.. لا أحد يشكو ولا ينفخ.. إنهم يحبون الطوابير.. بل إن الطوابير فرصة يستغلها الفرنسيون للتعارف والتودد لبعضهم بعضًا.. ولقد سألتني ابنتي ببراءة بنت صارف عليها دم قلبي في مدارس الخواجات.. بابي احنا ليه ما عندناش طوابير زي دي في مصر؟ قلت

لها بوقار العالم ببواطن الأمور.. لأ.. فيه يا ماما طوابير عندنا.. وإصرارًا منها على أن تفقع مرارتي سألتني.. طوابير زي دي يا بابي؟! قلت لها لأ.. مش زي دي.. الطوابير اللي عندنا مالهاش زي في الدنيا كلها.. أولًا من حيث الشكل الناس عندنا في الطوابير ما بيقفوش ورا بعض.. إنما غالبًا ح تلاقيهم واقفين في شبه منحرف.. تلاته واقفين قدام وراهم اتنين وبعدين أربعة وكل واحد فيهم بيقول أنا اللي جيت الأول.. وساعات تلاقي واحد راح ناطط فوق الطابور تلاقي راسه بأت عند الشباك في الأول وبقية جسمه ورا والطابور كله شايل الزبون الطاير ده فوق دماغه.. ده شايل فردة رجل.. وده ماسك دراع وده ساند الحوض.. وده عمال يقول.. يا عم مشيني يا عم.. ورانا مشاغل يخرب بيت أبوكو.. احنا واقفين من الصبح.. وح تلاقي واحد مشي من نفسه كده لحد أول الطابور وراح للي واقف أول واحد وقال له مساء الخير يا كابتن.. يا ريت والله تجيب لي عشر أرغفة معاك.. ويبأه يومه أسود لو رفض ولا قال له.. ما تقف في الطابور ايشمعنى احنا واقفين؟!. ح يرد عليه علطول.. طيب خلاص يا عم خلاص.. هوه إيه.. مابآش فيه رحمه ولا مروه.. بلد عاوزه الحرق.. هي عمرها حالها ح يتعدل طول ما أمثالكوا فيها!. وفي طوابيرنا يا ماما محدش بيقرا كتب ولا بيسمع موسيقى.. ليه؟!. لأن طوابيرنا مش مله زي طوابيرهم.. طوابيرنا مليانه أحداث ولو وقفتي عشر ساعات ما تزهقيش وفيه عندنا الحقيقة تنوع في الكراكترات في الطابور.. تلاقي النشال وتلاقي الحرامي وتلاقي الموظف الغلبان وتلاقي الصنايعي وبتوع السوق السودا والدلالات.. عالم مليان حركه وحواديت.. عاوزه دراما يا ماما.. ح تلاقي وليه نازله عياط ولطم عشان الفلوس راحت منها والناس بيلمولها..

عاوزه كوميديا يا روحي.. ح تلاقي نكت أبيحه بتتقال، والكل مسخسخ على روحه من الضحك.. عاوزه سياسه يا حبيبتي.. ح تلاقي ناس نازله شتيمه في الحكومه وبتلعن سنسفيلها.. عاوزه أكشن ح تلاقيهم في الآخر مدورين الضرب في بعض والسنج طلعت والمطاوي والبوكس داخل ع الفرن.. المفاجأه بأه.. إنك بعد ده كله يا روح بابي.. لما ح ييجي دورك في الطابور يديني ويديلك طولة العمر.. ح تلاقي العيش خلص.

# مصريتي.. مدينة صينية على أرض عربية

ضغط سموه بيده الكريمة على زر الريموت كونترول ليغلق شاشة البلازما وقال غاضبًا لمن حوله:

غناء مصري!. أفلام مصرية!. مسلسلات مصرية!. ألا يعيش على ظهر هذه الأرض غير المصريين.. ونحن ماذا نفعل؟. ندفع فقط.. أليست لنا وظيفة أخرى غير ضخ الأموال؟ الممثلون من مصر! والمطربون من مصر والكتاب أيضًا؟. بنينا لكم أرقى الجامعات وأرسلناكم لبعثات في الخارج ودفعنا ملايين الدولارات للخواجات حتى يعلموكم على أحدث التقنيات.. وهناك في مصر تدهور التعليم وانهارت الثقافة.. وظروفهم الاقتصادية اقتربت من المجاعة ومع ذلك.. لا زالوا يحتلون الشاشات والفضائيات.

قال أحد الجالسين في المجلس:

اسمح لي – طال عمرك – هذا الأمر لم يعد كما كان.. بالنسبة للغناء والطرب.. لم يعد مصريًا على الإطلاق.. لم تبق سوى حالات فردية تحاول محاولات مستميتة للبقاء بينما احتل المطربون والمطربات اللبنانيون ساحة

الغناء وتربعوا عليها مع المطربين الخليجيين أيضًا.. إن مصر الآن لا تغني إلا لبنانيًّا أو خليجيًّا.

قال الأمير مستاءً:

ولكنهم يغنون باللهجة المصرية؟

أجاب أحد الجالسين:

هي مرحلة يا سمو الأمير.. مرحلة انتقالية.. المسألة يجب أن تتطور بالتدريج.. بعد عشرة أعوام المصريون أنفسهم لن يتكلموا اللهجة المصرية.. ألا ترى اللغة الشبابية المنتشرة هذه الأيام.. إنها بداية اندثار اللهجة المصرية.. ويقول فقهاء اللغة إن اللهجة حينما تبدأ في التغير تمر بمرحلة انتقالية يهجر فيها العامة الكلام القديم ويستبدلونه بكلام جديد غير مفهوم يعطونه معاني جديدة.. وبالنسبة للمسلسلات اسمح لي.. فالمسلسلات السورية الآن هي الجالسة على عرش الدراما العربية.. والنجوم السوريون صاروا هم نجوم العالم العربي بلا منازع.. حتى المسلسلات التركية التي بدأت في الانتشار في البيت العربي.. مدبلجة باللهجة السورية وهذا كان أحد أسباب ذيوعها ونجاحها الساحق.

قال الأمير غاضبًا.. والسينما؟!

ألا توجد سينما هنا غير السينما المصرية؟ قلتم إنكم تريدون أموالًا لأن الإنتاج السينمائي مكلف وأعطيناكم.. قلتم نريد أن نعمل مهرجانات سينمائية وعملنا لكم.. ولا توجد سينما بعد كل ذلك.

قال أحدهم:

عفوًا – طال عمرك – السينما قادمة.. ونحن أعددنا أنفسنا لذلك.. إن السينما المصرية غارقة – بحمد الله – في مستنقع من التفاهة والمحلية.. ومعنا كثير من النقاد الذين ينهالون بأقلامهم كل موسم على الأفلام المصرية وقريبًا جدًّا سينجزون مهمتهم وستقع بالتأكيد السينما كما وقع المسرح قبلها.. ما تراه من السينما سموك الآن ما هو إلا حلاوة الروح.. وارتعاشة المحتضر.

قال الأمير:

إن الدور السياسي الذي كانت مصر تلعبه في المنطقة انتهى تمامًا.. ولم نعد نجري ونهرول لنحضر مؤتمراتهم التي يقيمونها لتجميع الأطراف لأن دور الشقيقة الكبرى لم يعد ملائمًا لنا ولا حكاية الريادة هذه صرنا نبلعها.. انتهينا من السياسة.. وظل الفن والثقافة كما هما وكأن مصر هذه أمر واقع مفروض على العالم العربي.. كل هذه الأموال ولا تستطيعون أن تعملوا فيلمًا.. ثم كلما سألت في شركات الطيران أجد الرحلات إلى القاهرة كاملة العدد.. إلام يذهب مواطنونا؟!. أجيبوني.. ما الذي في مصر وليس في البلاد الأخرى؟!. مسارح؟!. لم يعد في مصر مسرح ولا نهضة مسرحية.. ملاهٍ ليلية؟!. في لبنان أحسن بكثير.. ملاهٍ للأطفال؟!. في كل بلد عربي عندنا ملاهٍ عالمية لا تقل عن ملاهي أوروبا.. حتى التزحلق على الجليد نفذناه في بلادنا الحارة حتى يجد مواطنونا ما لا يجدونه في مكان آخر.. ومع ذلك يسافرون إلى مصر هذه كل عام! هل منكم من يعرف السبب؟.

قال أحد الجالسين وقد كان صامتًا طوال الجلسة:

طال عمرك.. أنا أكثر الجالسين ذهابًا إلى مصر وعندي شقة هناك على النيل وأعرف الحياة المصرية أكثر من المصريين أنفسهم.. يعني بلغة المصريين صايع ولافف ومدقدق.. الحقيقة إن عنصر الجاذبية في مصر غامض وصعب توصيفه بكلمات.. فالأخوة العرب حينما يذهبون إلى مصر لا يستمتعون بشيء غير أن يعيشوا في مصر ويتكلموا مع المصريين ويجلسوا على المقاهي.. ليس أكثر من ذلك.. بل إنني أعرف عائلة تذهب كل صيف إلى القاهرة.. ويظلون طول الليل يتمشون في شارع جامعة الدول العربية في المهندسين حتى يطلع الصباح وفقط.. هذا كل ما يفعلونه في رحلتهم.

صمت الجميع بعد ما قاله الرجل الأخير.. فهُم جميعًا يفعلون ذلك.. حتى الأمير نفسه.. عجيب أمر هذا البلد!. لا فن ولا ثقافة ولا فلوس ولا تكنولوجيا ولا سياسة ومع ذلك.. لا يزال الإقبال عليه وكأن به مغناطيسية.. وكأن به سحرًا.. قال الأمير لمستشاريه:

اسمعوا.. إذا كانت المسألة هكذا.. سنبني مصر أخرى في الصحراء عندنا.. صورة طبق الأصل من مصر بشوارعها وحواريها وكل شيء فيها.. بالقمامة التي في الشوارع.. وعربات الكارو.. حتى كوبري أكتوبر سنبنيه والأهرامات وبرج القاهرة وحتى شارع جامعة الدول هذا سنبنيه.. بمحل عصير فرغلي وعربات الأكل والحمير التي تروح وتجيء فيه حتى الصباح.. وسنسميها إمارة مصر العربية.

في ثوانٍ كانت الجرارات تعمل في الصحراء.. بقوة وبسرعة.. ملايين الدولارات كانت تبني مصر أخرى.. والمهندسون يحملون الصور والخرائط

في همة ونشاط.. كان المشروع الضخم قد رسا في النهاية على الصين وشركة صينية هي التي تولت تنفيذ المشروع.. الأحياء الراقية لم تتعبهم إطلاقًا مثل المهندسين ومدينة نصر وما شابه.. أما الأحياء القديمة فقد أرهقتهم جدًّا أحياء مثل الزمالك ومصر الجديدة والمعادي.. كان لها طابع خاص وعتيق فكان مكلفًا جدًّا.. أما المناطق الشعبية فقد كانت هي الطامة الكبرى حقًّا.. إن لها رائحة وطعمًا صعب جدًّا تحقيقه.. إمبابة مثلًا بنيت وهدمت مرتين حتى تنفذ بصورة مقنعة.. أما القللي وبولاق الدكرور والمزلقان فقد كانوا صورة طبق الأصل من الواقع في مصر وحينما تم بناء الأهرامات وأبو الهول.. ذهب الأمير ليشاهد بنفسه نتيجة العمل.. ونظر نحوهم معجبًا وقال للمهندس:

هل حجمهم وارتفاعهم نفس حجم وارتفاع الأهرامات الحقيقية؟

قال المهندس:

بالمِلّي يا سمو الشيخ.

قال الأمير وهو يتحسس أحجار الهرم:

مم صنعتم الأهرامات؟!

قال المهندس:

من الفيبر المقوى يا سعادة الشيخ.

قال الأمير:

وهل يعيش ويتحمل الجو؟

قال المهندس:

طبعًا يا طويل العمر.. ولكنه لن يعيش آلاف السنين طبعًا.. فله عمر افتراضي.. فهذه مشكلة الصيني دائمًا.

أخذ الأمير يتفقد بسيارته الفارهة معالم إمارة مصر الجديدة.. مثل نهر النيل الصناعي وفوقه كوبري الزمالك.. الذي عبر عليه الأمير حتى وصل إلى وسط البلد.. وشارع فؤاد وسينما ريفولي.. وميدان العتبة ثم نظر نحو حديقة الأزبكية وسأل المهندس.. أين سور الأزبكية؟ كان هنا سور لبيع الكتب القديمة!. قال المهندس أكيد سموك ما نزلتش مصر بقالك فترة السور اتشال من هنا يا طويل العمر.

استطاعت الشركة الصينية أن تنجز العمل وتبني مصر في فترة قياسية.. وللحق كانت إمارة مصر صورة طبق الأصل من مصر الحقيقية بكل تفاصيلها الشوارع والميادين نفسها والحواري والأزقة والعمارات الفخمة والفلل والقصور وحتى العشوائيات.. شيء واحد كان ناقصًا بوضوح.. هو المصريون.. أو بالأحرى روح المصريين.. زحام الشوارع.. خناقات النواصي.. الأحاديث الجانبية.. الهمس.. النكات الأبيحة.. القمامة المتناثرة هنا وهناك.. الكناسون الذين يشحذون ولا يكنسون والشحاذون الذين يحكون قصصًا رائعة من تأليفهم للمارة ليخرجوا ما في جيوبهم.. كانت مصر التي بناها الصينيون في الصحراء أشبه بلوحة ثابتة جامدة ليس بها حياة.

قال أحد الخبراء للأمير.. مصر الآن جاهزة يا طويل العمر كمبانٍ ومنشآت ولكنها فارغة ويجب أن نملأها.. فالناس لن تجيء إليها لتتفرج على الجدران

والمباني بالطبع.. واقترح الخبير الصيني الذي نفذ المشروع على خير وجه أن تتولى الصين أيضًا توريد بشر صينيين ليعيشوا في مصر الجديدة ويقلدوا نمط الحياة المصرية تمامًا بعد تدريبهم في معاهد متخصصة لتعليم اللهجة المصرية وعادات وتقاليد المصريين.. وبدأ الصينيون المتمصرون في التوافد على مصر الجديدة التي بنوها في الصحراء.. جلسوا على المقاهي.. ووقفوا أمام محلات عصير القصب.. وقالوا نكاتًا أبيحة مصرية وشربوا شيشة وردحت النسوة الصينيات من البلكونات وألقين بجرادل الماء الوسخ.. وفي الأفراح الشعبية كانت راقصة صينية تتمايل بلا إحساس على أنغام مصرية قديمة وبجوارها مطرب صيني شعبي يشبه إلى حد كبير «بعرور» ولكنهم كانوا أشبه بالممثلين الذين يمثلون لأنفسهم وعلى أنفسهم بلا جمهور.. بل إن وجود الصينيين في مصر الجديدة أفسد ما عمله المهندسون وأعطى المشهد لمسة غير مصرية.. فبدا الديكور تحفة والمخرج عديم الإحساس.. اقترح خبير آخر أن يتم ترحيل الصينيين ومتشكرين على ما فعلوا.. وتم استبدالهم بالهنود.. فمن ناحية هم أرخص أجرًا ثم إن لون بشرتهم وطبيعة شعرهم أقرب إلى المصريين.. وذهب الصينيون وجاء الهنود ومضى الولد سنجام بحماره في شارع جامعة الدول العربية وهو ينادي:

هاد.. يركاب – هو مار؟!

وملأت شوارع إمارة مصر رائحة الطعام الهندي الحار وصار الموقف أقرب إلى فيلم هندي مصري.. لا يفهمه أحد.. ولا يغري أحدًا بالمجيء.. وظلت الرحلات إلى مصر الحقيقية كاملة العدد.

وأشار أحد المستشارين على الأمير باستيراد عمالة مصرية.. شحاذين وعربجية وقهوجية وسواقين ميكروباص وتوك توك.. إن هذا من شأنه أن يعطي الحياة في الإمارة لمسة حقيقية فيضخ الدماء في جسد الشارع فالغرض هو بناء مصر أخرى وليس مدينة إنتاج إعلامي.. وفتح باب السفر إلى إمارة مصر الجديدة.. وسافر ملايين المصريين إلى إمارة مصر الجديدة بعقود عمل قليلة القيمة أقل مما كان يأخذه الهنود أو الصينيون بكثير.. وانتشروا في وقت قياسي حتى ملأوا الشوارع والنواصي وجلسوا على المقاهي.. يتفرجون على الماتشات ويشجعون في حماس.. ويغنون ويرقصون ويتشاجرون.

وجاء رجال الأعمال المصريون هم أيضًا إلى الأحياء الفخمة وسكنوها وبدأوا في عقد صفقات جديدة وفتح أسواق أخرى.

وبدأ السائحون يذهبون إلى إمارة مصر الجديدة.. بدلًا من ركوب الطائرات والوقوف في المطارات.. نصف ساعة بالسيارة وتكون في مصر.. هكذا كانوا يقولون في الإعلان الذي وضعته الشركة السياحية لتسويق إمارة مصر الجديدة.

وانتعشت الحياة في مصر الجديدة.. وصار كل مواطن فيها يرسل ويحضر أقاربه وفي أعوام قليلة كانت مصر كلها قد هاجرت من مصر واستوطنوا إمارة مصر الجديدة.. وأصبحت مصر الحقيقية خالية.. مهجورة.. كأنها مدينة سكنية ألقيت فيها قنبلة ذرية.. انتشر إشعاعها فاختفى ساكنوها.. حتى الحكومة المصرية لم تعد تتحمل المكوث في مصر طويلًا.. وإنما كانت تقضي معظم العام في إمارة مصر الجديدة ولا تأتي إلى مصر إلا شهرًا في

السنة.. لتشقر على البلد.. كمن يمتلك شقة في الساحل لا يسكنها وإنما يذهب من آن لآخر ليفتح الشبابيك ويشغل المياه في الحنفيات.

الغريب.. بعد كل ذلك أنه كلما حدثت مصيبة أو كارثة في أي مكان في الوطن العربي لا يشتمون إلا مصر.. ولا ينهالون بالسباب إلا عليها ولا يحرقون إلا علمها.. إن كراهية مصر والهجوم عليها صار من الكلاسيكيات العربية.. الزبالة في مصر.. والمجاعات في مصر والسفالة في مصر.. وحوادث الطرق.. والحرائق.. والقطارات التي تشتعل براكبيها.. والشباب الضائع.. والمخدرات.. والكباريهات.. والتفاهة.. والجهل.. والمرض.. ولم أسمع أبدًا.. ولم أشاهد مطلقًا.. من باب المهنية أو برو العتب كما يقول المصريون أن مواطنًا أصيب بدور برد حتى.. أو اتزحلق وهو ماشي.. في نشرة الأخبار الحية من الشقيقة قطر.. وقد فسر خبراء الإعلام تلك الظاهرة الفريدة.. بأن قطر ما فيهاش بني آدمين.. وإنما ملائكة.

**مايو 2007**

**(كان ممنوعًا من النشر)**

# مزبلة تاريخ

كل كتب التاريخ تتكلم عن الحكام.. والعصور تسمى باسم الحكام.. هكذا شئنا أم أبينا.. فالثلاثون عامًا التي قامت ثورتنا عليها.. سيكتب في التاريخ أنها عصر مبارك.. وقول اللي انت عاوزه بعد كده.. ومع ذلك فالحكام لا يتعلمون.. ويكررون أخطاء من سبقوهم.. لماذا؟! لأنه لم يحدث أن حكم بلادنا مدرس تاريخ في أي عصر من العصور.. جربنا في الرئاسة كل المهن.. طيار.. ظابط.. باشمهندس.. دخاخني زي محمد علي باشا.. عبد إسود زي كافور الإخشيدي.. (زمار) زي بطليموس الثاني عشر.. (مجنون) زي الحاكم بأمر الله.. ومعظم من حكمونا.. أتوا إلى سدة الحكم بغتة.. فلم يكن عندهم الوقت ولا الفضا أن يدرسوا التاريخ على كبر بعد أن صار كالنقش على الحجر.. والحاكم ينشغل بمجرد جلوسه على عرش مصر.. بافتتاحات ومظاهرات تأييد وخطب عصماء.. ويسمع آلاف القصائد التي تمدحه وتثني عليه.. ونحن كشعب نعتبر من أكثر الشعوب الموهوبة في تزبيط الحكام.

ولذا أقترح إلغاء مادة التاريخ من مناهج وزارة التعليم.. وإنشاء وزارة.. وزارة للتاريخ.. بها موظفون كل وظيفتهم أن يعطوا دروسًا خصوصية

للحاكم في قصره.. ساعتين كل يوم مش أكتر.. مش ح نتقل على السيد الرئيس ويعملون امتحانًا شهريًّا في مادة التاريخ.. يختبر فيه الحاكم وتضاف درجاته إلى أعمال السنة.. وقد سمعنا كثيرًا في هذه الأيام تعبيرًا يتردد على ألسنة النخبة وهو تعبير (مزبلة التاريخ) حيث يُلقى فيها كل حاكم كان يعارض إرادة الأمة.. وتصوروا حضارتكم.. بلد عمرها سبعة آلاف سنة.. منذ حكمها الملك مينا موحد القطرين حتى الآن.. وعماله ترمي في مزبلة التاريخ.. عرفتوا بأه ليه مشكلة الزبالة ما بتتحلش في مصر.. وإذا كان حكامنا مالهمش تقل على قراءة التاريخ ولا يريدون أن يتعلموا التاريخ.. مش نتعلم احنا بأه.. هوه الصراع أساسًا كان دايمًا بين مين ومين؟ بين الاستعمار والبلاد التي اغتصبها.. بين الدكتاتور والشعب المقهور.. إذا كنت ح ابأه أنا الدكتاتور.. ماشي.. قشطه جدًّا.. ولكن إذا كنت أنا المقهور.. لأ نقف بأه شويه.. مش ح نعدي دي وقد انتشرت بين العامة كلمة أطلقها المثقفون وتلقفها العوام وصاروا يرددونها دون أن يعرف غالبيتهم معناها.. وهذا ليس عيبًا في المثقفين ولا عيب في العوام.. وإنما هو عيب فيا أنا لأني باخد بالي من الحاجات دي مش عارف ليه بس؟!. والكلمة هي كلمة (فاشي) و(الفاشية).. وقد اختلف طرفان أمامنا.. كان كل منهما يصرخ في وجه الآخر.. أنت فاشي.. فيرد عليه الآخر بعصبية إنتوا اللي فاشيين.. أنا ساعتها كنت ماشي في المول ووقفت أتفرج مع اللي بيتفرجوا على الاتنين اللي مفشفشين بعض دول.. وسمعت أحدهما يهمس للآخر:

هوه فاشي دي يعني إيه يا كابتن؟

- يعني فتان.. بيفتش السر وكان مسستم مع أمن الدولة يا عم.

- يا راجل!

وانضم إليهما ثالث وقال مبتسمًا بثقة:

- لا يا كابتن فاشي مش يعني فتان.. الفاشي ده اللي هوه مزدوج الجنسية.

- لا يا عم.. مزدوج الجنسية ودي تزعل في إيه؟ دول كانوا ح يمسكوا في بعض.. ده واحد فيهم شال الميكروفون اللي مركبينهوله.. وساب القعده وراح ماشي.. فاشي دي أكيد شتيمة.

وانضم إليهما رابع وقال:

- ما هي باينه يا اخواننا.. فاشي يعني عجله.

وحينما تساءل أحد الواقفين ببراءة.. يعني إيه عجله يا كابتن.. انفجروا جميعًا ضاحكين من جهل السائل.

والحقيقة أنني قبل أن أحضر هذا الحوار القيم الذي لم أشترك فيه إلا بالتنصت كنت تقريبًا أعرف يعني إيه فاشي.. إنما بعد كل هذه الأطروحات التي سمعتها.. لم أعد أعرف تحديدًا ماذا تعني كلمة فاشي.

وليس الغريب أن كل من قال لنا كلمة فاشي في البرنامج لم يفسر لنا ماذا يعني بكلمة فاشي.. الأغرب أن المذيع قال بود وابتسام في مقدمة البرنامج.. إن الحلقة دي بنقدمها لرجل الشارع.. وهو تعبير صار ينقطني هو الآخر.. فأنا أعرف أن يكون هناك (راجل البيت).. (رجل المرحلة).. (رجل المهام الصعبة) إنما رجل الشارع دي معرفش ليه باكرهها زي ما بئيت باكره كلمة فاشي.. ومقالي هذا لا أوجهه للنخبة اللي عارفه يعني إيه فاشي.. وإنما أقدمه للناس اللي ماعارفاشي.. والفاشية وإن لم يكن لها مبدأ أو عقيدة.. إلا أن

العنف والإرهاب من أهم معالم الفاشية.. ولقد اتخذوا لها رمزًا قديمًا.. كان يحمله الأباطرة والقضاة الرومان القدامى.. وهو عبارة عن حزمة من العصي واسمها اللاتيني (فاشس) ومن هنا جاءت كلمة الفاشية وكانوا يضعون في وسط حزمة العصي هذه بلطة.. وكان شعار الفاشيين (لا مناقشة بل طاعة فقط)..

وقد ظهرت في إيطاليا وأعلن عن تكوينها في مارس 1919 حينما قامت ثورتنا هنا في مصر.. حيث جمع موسوليني الجنود المسرحين من الجيش.. ونظمهم في فرق مقاتلة وميليشيات لإرهاب الشعب الإيطالي.. ولما طنشت الحكومة وكبرت دماغها عنهم.. كثر عدوان هذه الفرق على الناس والعمال.. الذين دعوا لمقاومتها بالسلم أملًا في أن تتعب الفاشية وتحس على دمها.. ولكنها على العكس أخذت تتزايد قوتها حتى امتلكت زمام الأمور.. وكان زيهم الرسمي عبارة عن قميص أسود.. ولذا فقد سموا (ذوي القمصان السوداء) ولما كان برنامج الفاشية الوحيد هو الوصول إلى السلطة فقد تحقق لهم ذلك بمجرد ما أن عين (موسوليني رئيسًا للوزراء) فسيطروا على البوليس والجيش وشتى أجهزة الدولة ورغم ذلك استمروا (الفاشيون) في أعمال العنف حتى بعد أن أصبحوا في الحكم.. ونفذوا مجموعة من الاغتيالات كان الغرض منها ألا يوجد في البلاد حزب أو فصيل سوى الحزب الفاشي وأصبح المجلس الفاشي الأعلى هو الذي يحكم البلاد.. وموسوليني كان هو رئيس المجلس الفاشي.. وقد لفتت الأنظار في أوروبا خطبة موسوليني الأولى.. كانت خطبة غريبة انفجارية.. تهديدية.. وكان يبدو دائمًا متحديًا طالبًا للنزال.. وللحق تغيرت إيطاليا كثيرًا خلال هذه الفترة وأصبح السائح

يعجب بما يراه من مظاهر النظام في كل شيء وأصبحت روما من أجمل بلاد أوروبا.. وأصدر موسوليني مجموعة من القرارات الاستثنائية أعطت الدولة سلطات واسعة للقضاء على المعارضة.. وموسوليني.. كان شابًّا مغامرًا.. كان أبوه حدادًا يؤمن بالاشتراكية.. وكان في صباه مهيجًا للجماهير وعنيفًا ويدعو علنًا لاستخدام القنابل ثم انقلب فجأة على الاشتراكية بعد الحرب.. وهاجم كل أشكال الدولة وسمى نفسه فرديًّا وأخذ يدعو إلى الفوضوية.. هذا ما قاله نهرو في حديثه عن طغاة العالم.. ويقال إن الدوتشي موسوليني.. كان يزور أحد مستشفيات الأمراض العقلية في روما.. وهتف النزلاء المجانين جميعًا للدوتشي العظيم.. بالمجد والحياة.. ثم لفت نظره أن واحدًا من المجانين لا يهتف مع الهاتفين.. فسأل عنه.. فقيل له.. هذا ليس مجنونًا يا فخامة الدوتشي! لقد شفي أخيرًا وسيخرج من المستشفى!

وموسوليني إذا رأيته وهو يخطب في الناس نشعر أنه ممثل يقوم بدور موسوليني وكان تمثيله غير طبيعي.. وكثير المبالغة.. ولقد شاهدت فيلمًا إيطاليًّا تسجيليًّا عنه.. واندهشت.. كيف بعد كل هذه السنين الطويلة التي مثل فيها دور الزعيم لم يكتسب الخبرة الكافية ليبدو طبيعيًّا؟!. واندهشت أكثر.. كيف صدقه الإيطاليون وهتفوا له؟!. وكان القسم أيامها.. هكذا:

(أقسم بالله وإيطاليا.. أن أنفذ أوامر الدوتشي وأن أخدم بكل قواي وأضحي بدمي في سبيل الثورة الفاشية).. وكانت إيطاليا كلها تردد هذا القسم بأصوات مزلزلة.. والإيطاليون جميعهم راكعون وأياديهم مرفوعة إلى أعلى كأنهم يصلون.. أو يتضرعون إلى الدوتشي.

وإذا رأيت كيف مات موسوليني.. بيد إيطالية وألقيت جثته في أرض إيطالية لتركل بالأقدام ويبصق عليها الإيطاليون.. لسألت نفسك هل طبيعة الشعب من طبيعة الزعيم الذي يحكمه؟!!.

ربما تسألني حضرتك.. أيها القارئ العزيز.. لماذا وجعت دماغك بقصة الفاشية وموسوليني هذه.. وحتى لا تورطني في أي ربط أو تلقيح كلام يخص واقعنا أو حياتنا هنا.. فأنا أؤكد لك.. أنني ما قصدت إلا أن أشرح لهؤلاء الذين كانوا واقفين في المول.. وسمعوا الكلمة (الفاشية) ولم يدركوا معناها.. وأحكي لهم قصتها.. فإخواننا في ميدان التحرير كلهم يعرفون معناها.. أما رفقاء المول.. فيبدو أنهم ليسوا سياسيين بما يكفي وإلا لكان المول قد تحول بهم إلى موليونية.

* * *

بعد أن قرأت هذا المقال على بعض الأصدقاء الذين كانوا لا يعرفون معنى كلمة فاشي وما هي الفاشية.. انبسطوا جدًّا.. ولكن أحدهم قال لي.. طيب الفاشية وعرفناها.. إنما.. يعني إيه نهرو؟!

# لا تصدقوا العلماء

لا شك أن عالم الحشرات عالم كبير هائل يفرض وجوده على كوكبنا يروح ويجيء ويصول ويجول رغم أنوفنا.. وعلى أنوفنا.. وجباهنا.. ويتسلل داخل ملابسنا.. ويلسعنا على أقفيتنا.. في جرأة وحيوية وسفالة لا تتناسب إطلاقًا مع الفارق الضخم بين أحجامها الحقيرة وعقولها الضامرة.. وبين أجسادنا الضخمة وعقولنا المستنيرة.. نحن بني البشر الذين ورثنا الأرض وما عليها.. ولقد خلق الله الحشرات لحكمة لا يعرفها إلا هو.. فتكاثرت وتنوعت وانطلقت فوق كوكبنا في تحدٍّ سافر.. وغشومية متعمدة.. لا يردعها مبيد.. ولا تلتقطها عجينة.. ولا تهشها منشة.. تلك الوسائل الفاشلة التي تفتقت عنها أذهاننا لمكافحة الحشرات.. والتي تثبت بما لا يدع مجالًا للشك.. أن هناك مؤامرة.

وقد رصد العلماء أن الحشرات هي أكثر الكائنات قدرة على البقاء والتناسل دونًا عن سائر المخلوقات.. ولكنها لسبب غامض لم يتوصل إليه أحد.. قررت أن تهاجر من أوروبا وأمريكا.. والشرق الأقصى.. مفضلة أن تستوطن هنا.. في بلادنا.. وهذا ما يؤكد فكرة التعايش التي يتميز بها شعبنا

وفكرة التوافق وقبول الآخر.. حتى لو كان هذا الآخر.. هاموش أو أكلان أو براغيت أو بَق أو ذباب أو حتى حرامي الحلة.. فنحن نؤمن بالهرش.. والهرش الآخر.. والحشرات كما تعلمون تعيش على اللـدغ.. وامتصاص الدمــاء.. ودمــاء المصريين للحق - وهذا رأي البعوض - هي أطعم دماء تذوقتها الحشرات بين سائر الأمم فهي دماء دافئة.. وليست باردة كدماء الأوروبيين.. حلوة المذاق فمعظمنا مريض بالسكر.. فائرة كالمياه الغازية.. لأننا جميعًا عندنا ضغط.. وهذا ما جعل الحشرات تقطع آلاف الأميال.. وتعبر المحيطات والبحار لتأتي إلينا لتبحث عن رزقها.. وعن مناخ ملائم وبيئة حاضنة.. تسمح لها بالتكاثر والحياة في سلام ودعة.. ولم يحدث هذا اعتباطًا أو بطريق الصدفة كما يتصور البعض.. فهذه الكائنات الدقيقة.. لا تفعل شيئًا إلا إذا فحصته جيدًا.

فقد أكدت التقارير التي قدمتها أجهزة المخابرات الحشرية.. أن شعبنا يحب الزبالة ويستمتع وهو يأكل طعامه بأن يرمي الفضلات والقشر في أقرب مكان.. وتتراكم أكوام الزبالة الرائعة.. التي هي مستعمرات خالية.. لا ينقصها إلا ساكنوها.. ولذا فقد صدر الأمر لجحافل الحشرات أن تأتي إلينا من كل بلاد الدنيا.. كما أكدت التقارير أيضًا.. أن المبيدات التي يستخدمها شعبنا غالبًا ما تكون مغشوشة.. بل إن بعض الأنواع من الحشرات بدأ يتناولها على أنها صوص.. يوضع فوق الزبالة ليعطيها نكهة ألذ.. ولأننا شعب مُسالم.. فقد رصدت الأجهزة.. أننا لا نقتل الحشرات.. وإنما فقط.. نهشها.. فإذا أتت البعوضة.. ووقفت على قورة المواطن المصري..

وأخرجت سلاحها (إبرتها) وغرستها في جبهته لتمتص ما تريد من دمائه اللذيذة.. ينتظرها بصبر جميل حتى ترتوي.. ثم بحركة مصرية مليئة بالطيبة والعذوبة.. يدفعها بيده.. بمنتهى الرفق.. وكأنه يقول لها:

مش شربنا وانبسطنا.. ياللا بأه.

صدقوني لا توجد مشكلة بيننا كشعب.. وبين الحشرات.. حتى إن عالمًا فرنسيًّا تعرفت به على مقهى في الشانزليزيه.. كان يبدو محبطًا.. وظل يشكو لي مُر الشكوى من أن أبحاثه متوقفة.. ويكاد يفقد عمله.. لأنه لا يجد الحشرات التي يجري عليها أبحاثه.. فقلت له بكل ود.. اكتب لي بس اللي انت عاوزه وأنا ابعتهولك.. ومن غير أي حاجة يا عم.

وليسمح لي علماء الحشرات أن أناقشهم في مسألة علمية كثيرًا ما تكلموا فيها.. وأفتوا فيها.. واستخلصوا نظريات وأفكارًا بعيدة تمامًا عن الحقيقة.. واعذروني.. فهي مجرد آراء علمية نظرية وتجارب محدودة.. أجريت على مجموعات من الحشرات الموضوعة بعناية فائقة في حوض زجاجي.. يعلوه ميكروسكوب.. وهي إن أدت إلى نتائج فإنما تعبر فقط عن هذه المجموعة من الحشرات المستخدمة في التجارب.. ولا تعبر عن سائر الحشرات والتي أعتبر نفسي واحدًا منها أعيش معها.. وتعيش معي.. بشكل دائم.. وطبيعي.. و.. ثانية واحدة.. أحسن الظاهر فيه حاجه ماشيه في البنطلون.

نعود إلى العلماء.. وما قاله العلماء عن النمل مثلًا.. يقولون إن جحافل النمل هي أشبه بمليشيات عسكرية منظمة.. تمشي في طوابير عجيبة بصورة منتظمة انتظامًا دقيقًا.. لا يخرج أحد منها عن الصف.. تراها تعمل بجد

وبمنتهى الظبط والربط طوال أشهر الصيف.. تحمل غذاءها الذي هو عبارة عن فتافيت السكر التي تتناثر من الملعقة وأنت تطوحها في كوب الشاي أو بعض حبات الرز التي تسقط من الغربال وأنت تهزه.. أو رجل صرصار ظلت في مكانها على الأرض بعد أن ضربته حضرتك بالشبشب.. ففقد ساقه وجرى بثلاث أرجل هاربًا من شبشبك.. تلك هي المئونة والخزين والاحتياطي الاستراتيجي الذي يعتمد عليه النمل.. في أيام الشتاء الصعبة حينما يكمن في أوكاره بعيدًا عن الأمطار والبرد القارس.. تلك النظرية الاقتصادية النملية التي روج لها العلماء.. مبهورين مأخوذين.. بذكاء النمل وعبقريته.. وقدرته على التدبير والتفكير.

ولكن.. معلش بأه.. لقد أعطيتكم الفرصة كاملة لتعبروا عن نملكم هذا الذي كنتم تتابعونه عبر الميكروسكوب وتصورونه بالكاميرات الـ HD.. لكي تفلقوا دماغنا بهذا البحث العلمي الذي لا يمت للواقع بصلة.. أنا بأه عايش مع النمل.. وشايفه رايح جاي قدامي ليل نهار.. ودايس بجزمتي على ملايين منهم.. وشايط ملايين تانيين.. وهذا العنف الذي أمارسه ضد النمل.. لا أعرف دوافعه.. سوى أنني بغريزتي هكذا ما إن أرى مجموعة من النمل حتى أدوس عليها وأهرسها تحت رجلي مكملًا طريقي بلا أي شعور بالذنب ولا كأني عملت حاجه.. الدافع الآخر هو تلك التفسيرات العلمية التي فقعتني.. وجعلتني أريد أن أصرخ.. يا ناس.. أرجوكم لا تصدقوا العلماء.. فبالنسبة للنظرية الأمنية والعسكرية المتعلقة بطوابير النمل هذه.. محض هراء.. فقد راقبتهم جيدًا.. والله العظيم ما عارفين هما رايحين فين.. أهي طوابير ماشيه وخلاص.. كل واحد ماشي ورا اللي قدامه.. وقد

تصورت وأنا أراقبهم.. أن أول واحد في الصف أكيد عارف.. ولذا فقد وضعت قدمي أمامه وسددت عليه الطريق.. فماذا فعل.. تصوروا أنتم.. لف واتدور.. ومشي في العكس.. والكل وراءه وبنفس النظام وبنفس الحماس.. كأنهم كانوا رايحين للاتجاه ده أصلًا.. وفي مرة أخرى.. كان طابور النمل طويلًا كثيفًا يمشي بعسكرية منضبطة وكأنه ذاهب إلى ميدان القتال.. وتركته.. لم أعترضه إطلاقًا وظللت أرقبه.. لكي أعرف ماذا سيفعل.. ظل الطابور يمشي ويمشي.. حتى وجد أمامه جدارًا.. فصعد قائد الطابور على الجدار.. والكل وراءه.. وأخذ يصعد ويصعد.. وأنا أنظر بعيني إلى فوق في حيرة:

هما رايحين يعملوا إيه فوق؟

حتى وصل الطابور إلى السقف.. ثم لف قائدهم ودار نازلًا على الجدار.. عائدًا من حيث أتى ووراءه الطابور من نفس الطريق.. هل رأيتم مضيعة للوقت هكذا؟!. أين تلك العبقرية المزعومة يا علماء النمل؟! نأتي بأه لمسألة الالتزام.. وهذه نقطة تغيظني جدًّا.. هل رأيتم جيشًا من النمل يحيط بصرصار ميت؟ هل راقبتم سلوكه؟ منتهى الهمجية.. يطلعون فوق جسده وهم في قمة الحماس والهياج.. هذا يشد شاربه.. وهذا يخلع ساقه وكل من يفز بغنيمة منه أو قطعة.. يأخذها ويجري بها مبتعدًا عن الجميع.. أين النظام؟! وأين الالتزام؟! وأين الرتب؟ كلها مجرد ترهات.. وأضحكني جدًّا أن أحدهم استطاع أن ينتزع قطعة كبيرة من جناح الصرصار.. وجرى بها بعيدًا عن الكتيبة في أنانية وجشع واضحين.. ولكن القطعة كانت ثقيلة على ظهره.. يجرها بالعافية.. وتكاد تزهق أنفاسه.. وهو يحاول.. ويحاول.. كان يستطيع

أن يقتسمها مع زميل.. أو مع زملاء فرقته.. ولكنه لا يريد أن يقتسمها ولا يستطيع أن يحتفظ بها في نفس الوقت.. فماذا فعل؟! تركها مكانها.. وعاد إلى الصرصار بنفس الحماس كأنه اكتشفه فجأة.. هذه هي تجربتي العملية التي مررت بها مع إخواني من النمل.. وإني أهيب بالعلماء.. أن ينزلوا إلى النمل ولا يفتوا وهم جالسون في معاملهم يرصدون سلوكيات حفنة قليلة من النمل تحت الميكروسكوب.. ولا بد أن هذه الحفنة من النمل كانت تعلم أن هناك من يصورها.. وأن الكاميرات موجهة إليها.. فخدعتكم.. وافتعلت أشياء أمامكم وأعطتكم دروسًا اقتصادية وعسكرية زائفة أعجبتكم جدًّا.. ونقلتموها إلينا في تعالٍ وتباهٍ كمن جاب الديب من ديله.. وقد أزعجني جدًّا.. أن خبيرًا اقتصاديًّا ظهر منذ فترة يؤكد على كلامكم وينصح شعبنا بتبني نظرية النمل الاقتصادية في العمل والتخزين.. وخبيرًا استراتيجيًّا كان يوصي هو أيضًا بالنظرية العسكرية الأمنية.. واستشهد بكلام العلماء عن النمل.. وهذا ما جعلني أتصدى للدفاع عن وجهة نظري هنا كخبير حشري.. وشاهد عيان أيضًا.

# قول ما تخافش..
# البورص ح يمشي ح يمشي

أنا لا أعرف يا أخي.. ما الذي يخيفك بهذه الصورة من البورص؟! ما إن تراه واقفًا على الشباك.. حتى تقف مذعورًا.. وتصرخ:

الحق.. بورص!! بورص!!

هل سمعتم أن بورصًا قتل إنسانًا قبل ذلك؟! إن طوله في أكبر الحالات لا يزيد عن طول كف اليد.. لم يثبت عليه في يوم من الأيام أنه كان يعض أو يقرص أو يمتص الدماء.. فلماذا كل هذا الرعب الذي ينتابك حينما تراه؟ قال صديقي.. وهو يتفادى النظر إليه وقد أغمض عينيه تمامًا.. شكله وحش قوي.. بشع.

مسألة الشكل دي يا صديقي مسألة نسبية.. فإذا كانت بالشكل بأه.. لحدفت هذا الشبشب الذي في يدي نحوك أنت وليس نحو البورص الواقف على الشباك.. إنت مش دريان بسحنتك ولَّا إيه؟

لماذا نخاف من الأبراص؟ هل لأنها من سلالة تلك الكائنات العملاقة الديناصورية التي عاشت منذ ملايين السنين على كوكبنا؟ وهل انتقل خوف

أجدادنا الأوائل إلينا بعد ملايين السنين فورثناه.. أبًا عن جد؟! ولكنها انقرضت خلاص.. فهل يظل الخوف ساكنًا في القلوب بعد انقراض سبب الخوف نفسه؟

قال صديقي صارخًا.. وحياة أبوك مش وقت فلسفة.. اضربه بالشبشب بأه.. وسألته بهدوء.. سأضربه.. حاضر.. ولكن ماذا فعل؟!. لا يوجد عقاب بلا جريمة وإذا كانت المسألة أن شكله مش عاجبك.. فهذا قانون خطير فشعبنا مثلًا مش عاجبه أي حاجه.. فهل نرفع شباشبنا وننهال على كل ما لا يعجبنا شكله؟

ولم يطق صاحبي صبرًا فأخذ مني الشبشب.. وانهال عليه بكل قوته.. آه لو كان معي كاميرا لصورت لكم تلك النظرة الوحشية البدائية التي كانت في عينيه.. وذلك الإصرار على القتل وهو يهوي بذراعيه المفتولتين وبكل قواه.. على ذلك البورص المسكين الذي جاء إلى هنا بمحض الصدفة.. لا يلوي على شيء.. وليس لديه أي نية شر تجاه أي شيء.. ولا يطمع سوى في هاموشة معديه.. أو فراشة صغيرة.. ربما يلتقطها في الطريق.. وليس أكثر من هذا.. فإذا بهذا الكائن المفترس (صديقي) يهاجمه بتلك الشراسة المرعبة.. دون أن يرتكب أي ذنب.. طبعًا أنا أكلمكم من وجهة نظر بورص.. وسقط البورص من أول ضربة على الأرض.. وقد انقطع ذيله.. ورغم أنه مات.. فإن ذيله كان لا يزال يلعب.. وصرخ صديقي.. شوف ابن الـ .... ده لسه ديله بيلعب!. وجرى مبتعدًا مشمئزًا وهو يصرخ.. اضرب الديل.. اضرب الديل.. قلت له بهدوء.. يا أخي.. هل سمعت أن ذيلًا قتل إنسانًا؟؟ ماذا

يخيفك من ذيل يلعب.. لقد قتلت البورص.. وفعلت ما أردت.. ماذا يضايقك من ذيله.

وشردت بعيدًا.. كان الموقف الذي حدث الآن أمامي.. مغايرًا تمامًا لما كان يحدث منذ ملايين السنين.. كان جد هذا البورص الأول هائلًا ضخمًا عملاقًا يمشي متباهيًا في الأدغال باحثًا عن أي تافه من بني البشر أمثال صديقي هذا الذي لا يفرق في شيء عن جده الأول.. ولما وجده أمامه.. صرخ جدنا نفس الصرخة تقريبًا التي صرخها صديقي.. وأخذ يجري ويصرخ ويلطم على وجهه والبورص الخرافي الأول يفتح فمه.. معتبرًا إياه.. مجرد هاموشة شاردة.. ورفع ذيله.. لكي يخبطه به خبطة تخرسه شويه حتى يتخلص من صوته المزعج فكان ذيله أشبه بقطار يتحرك بسرعة مهولة متوجهًا نحو جدنا الأول.. الذي أخذ يصرخ.. ويصرخ.. وأفقت من شرودي على صديقي الذي التقط أنفاسه أخيرًا بعد أن خمدت تمامًا حركة الذيل.

ودخلت زوجتي.. باسمة وهي تتساءل ببراءة:

فيه إيه صوتكوا جايب آخر الشارع.. انتوا بتتخانقوا ولّا إيه؟

قلت لها بهدوء:

لا.. بس أصلنا لقينا بورص.

وصرخت زوجتنا صرخة مدوية:

بورص؟!

وأجبتها بهدوء أكثر:

آه بورص.

ويبدو أن هدوئي ضايقها.. وزاد من فزعها الذي بلغ ذروته.. فصرخت مرة أخرى:

وموتّوه ولا لأ؟

قلت لها مستنكرًا في ضيق:

ونموته ليه؟!

قالت بحدة لا تحتمل الهزار:

اسمع.. أنا ما بهزرش في الحاجات دي.. موتّوه ولا لأ؟

قلت لها وأنا أشير نحو صديقي:

حجازي ضربه بالشبشب.

قالت وهي مشمئزة جدًّا:

ومات! يع.

قلت لها في غيظ:

هو احنا ما نموتوش تصرخي.. نموته تقرفي.. يعني هوه جاي ينكد علينـا وخلاص.. نفسي أعرف البورص عامل لكم الرعب ده ليه بس؟! حد يقنعني.

- ما شفتش منظره عامل ازاي؟

قلت في نفاد صبر.. وقد علا صوتي بأه.. وفقدت هدوئي:

ده مش مبرر يا اخواننا.. يعني أنا أقعد طول ما أنا ماشي أقتل في أبراص علشان شكلها مش عاجبني.

قالت زوجتنا شاكية لصديقي (قاتل البورص) الذي جلس متباهيًا بفعلته:

بذمتك ده منطق اللي بيتكلم بيه ده.. عمرك شفت واحد عاقل بيدافع عن بورص.. ده احنا مره داخلين البيت.. لقينا بورص واقف بره فوق الباب أنا والعيال وقفنا نصرخ.. ونقول له اضربه.. موته.. عاوزين نخش البيت.. اوعى يجري منك لاحسن يدخل جوه.. وهوه واقف يبص لنا كأننا مجانين.. وفي الآخر.. مسك عصايا وزقه بيها كأنه بيطبطب عليه.. راح البورص جاري طبعًا.

أخذت أتأملها وهي تحكي عن تخاذلي وقلة حيلتي أمام بورص غاشم حال بيننا وبين دخول الكهف الذي نسكن فيه.. وعدت بذاكرتي بعيدًا.. بعيدًا لملايين السنين فرأيت جدتها التي عاشت على هذه الأرض فيما قبل التاريخ منكوشة الشعر محرضة على العدوان.. وهي تدفع جدي الغلبان أن ينقض بحربته الهزيلة على ديناصور يهاجم قبيلتها.. وتحرك بداخله نوازع الشر لكي يقتل الديناصور ولكي تهيجه أكثر وتثير مشاعره كرجل.. قالت له إن الديناصور كان بيعاكسها.. تلك الحربة الهزيلة التي ما إن غرسها جدي في صدر الديناصور حتى اعتقد الديناصور أنها (خلة) يقدمها له جدنا ليسلّك بها أسنانه فتلقفها بفمه وأخذ يقرقشها باستمتاع كأنها عود باتون ساليه.

ولما أدرك جدنا.. أنه فقد سلاحه.. في معركة غير متكافئة مهما تعالت صيحات تلك المرأة النكدية المجنونة التي تطالبه بالاستمرار في القتال.. فقد أدرك أنه أمام خيارين لا ثالث لهما.. إما أن يستمر في المعركة وينقرض النوع

الإنساني كله بعد أن يبتلعه الديناصور.. أو أن يلطشها قلمًا على وشها ويقول لها اخرسي بأه في يومك ده.

ولا شك أن جدي فضل الخيار الثاني.. والدليل أن الديناصورات هي التي انقرضت وليس جدي.. وتقول الحفريات إنه مات بعد ذلك ميتة طبيعية أشك كثيرًا في تقرير الطب الشرعي بشأنها.. فالثابت أنه لم يقتله ديناصور ولا بورص خرافي ولا سحلية عملاقة.. وإنما مات كما أعتقد بارتفاع في السكر وفي ضغط الدم.. وأصابع الاتهام تشير نحو تلك المرأة منكوشة الشعر التي كانت تقيم معه بالكهف المذكور ووجعت دماغه بثرثرتها التي لا تنقطع.. وشكواها التي لا تنتهي.. وتحريضها الدائم له على القتل وسفك الدماء بمناسبة وغير مناسبة.. وتؤكد النقوش القديمة التي على الأحجار.. أن آخر كلمة قالها جدي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.. بانادول إكسترا.

# ناموس.. ناموس.. وتحيا مصر

آه لو يعلم الناموس.. كم أكرهه.. وكم أكره طريقته الحقيرة في اللدغ.

إنها تطير في خفة وخبث.. ثم تهبط على أي منطقة في جسدي بعد أن تحددها بعناية وتقف مزهوة باللاندينج الرائع الذي عملته لدرجة أنني لا أشعر بها.. وبعد أن تستقر وتلتقط أنفاسها.. تتحسس الجلد بخبرة مذهلة وكأنها طبيب محترف يبحث عن وريد.. ثم تخرج إبرتها الحادة وتغرسها في لحمي بمهارة تحسد عليها.. لتأخذ عينة محترمة من دمي.. فتنتشي ويتورد جسمها النحيل.. كل هذا وأنا أراقبها بكل تركيز متحينًا لها الفرصة المناسبة لكي أرفع كفي وأنهال به عليها بكل قوة.. وكأنها ليست يدي وإنما يد القدر.. فإذا بها الملعونة.. تنفلت في أقل من فيمتو ثانية بما استطاعت أن تظفر به من دمي المحروق.. آه.. أقولها في غيظ وأنا أكاد أنفجر.. أين عربية الرش؟ كانوا يرشون الشارع كل يوم بالمبيدات.. ماذا حدث؟ سأكلم البلدية.. لا.. سأكلم المحافظ.. بل سأكلم وزير الصحة.. بل سأطلب رئيس الوزراء.. تقول لي زوجتي.. اهدأ.. لا تكبر الموضوع.. سيقولون عنك مجنون.. فهل تكلم المسئولين لتشكو من ناموسة.. ربنا يكملك بعقلك.. انزل اشتري جهاز قتل

الناموس.. المسألة بسيطة.. وذهبت إلى الصيدلية.. وقلت للصيدلي.. من فضلك.. و.. روحت ضارب نفسي بالقلم على وشي.. أنا عاوز.. ورحت هابد نفسي بالقفا.. فابتسم الصيدلي وقال.. جهاز قتل الناموس.. اتفضل.. ضع القرص في الجهاز ولن تجد ناموسة واحدة في البيت.. فهذا الجهاز تصدر منه أشعة وموجات كهرومغناطيسية تتلف الجهاز العصبي للناموسة فتسقط في الحال. قلت له: متشكر يا دكتور.. وضربت نفسي على قورتي ضربة خفيفة..

في البيت وضعت الجهاز بجوار السرير.. ونمت وبداخلي إحساس من ألقى قنبلة هيروشيما وأنا أمني نفسي بأن أصحو لأجد آلافًا من أجساد الناموس اللعين وهي ملقاة في أرض الغرفة.. مجرد أشلاء مبعثرة.. وكانت أسوأ ليلة قضيتها في حياتي.. وكأنه آتٍ لكي يمتص دمي.. ويسخر مني في نفس الوقت.. وخيل لي أنه يقول لي وهو يستعد للهجوم.. جايب لي جهاز يا روح أمك.. طيب خد.. وانتفضت من سريري وأنا أصرخ وأنهال ضربًا على جسدي في كل حته.. سأكلم هيئة حقوق الإنسان.. وسفير المساعي الحميدة.. سأكلم اليونيسيف.. وقالت زوجتي بكل هدوء.. يا عزيزي لا تضحِك منك الناس.. المسألة بسيطة.. اشترِ صاعقًا للناموس هذا هو الحل الوحيد.. كل صديقاتي عندهن صواعق للناموس ويعشن في سلام وطمأنينة.. وأعجبتني الفكرة.. والذي أعجبني بصراحة.. هو لحظة التشفي.. والناموسة ترتطم بالسلك المكهرب فتحدث ذلك الصوت.. بش بش وتسقط بلا حراك.. وأنا أنظر إليها بكل احتقار.. وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

واشتريت أربعة صواعق.. واحدًا للبيت عندي.. وواحدًا للمكتب.. وواحدًا عند الحاجة والدتي.. وصاعقًا محمولًا صغيرًا.. يتحرك معي أينما أذهب.

وظللت طوال الليل ساهرًا.. في انتظار أن أسمع تلك النغمة البديعة.. بش بش.. ولكنني لم أسمعها.. وفجأة قلت لزوجتي.. اسمعي لقد اصطاد الصاعق واحدة.. أليس كذلك؟! وقمت جريًا لكي أراها.. ولكن لم أجد أي شيء في الصاعق سوى بعض الهاموش الذي لم يكن يضايقني في أي شيء وأفقت على صوت زوجتي وهي تقول في زهق.. هوه احنا جايبين الصاعق علشان تقعد جنبه؟! سيبه يشتغل لوحده.. قلت لنفسي خمسمائة جنيه دفعتها من دم الحي في هذا الصاعق.. والنتيجة؟! لم يصعق ناموسة واحدة.. الرحمة يا رب.. قال لي صديقي شريف بابتسامة ودودة عذبة تشبه إلى حد كبير ابتسامة الصيدلي:

شوف يا سيدي.. أنا بأه في الناموس ده خبره.. جبت صواعق وأقراص ورشيت مبيدات.. ركبت سلك في الشبابيك.. وعملت كل حاجة.. كل ده كلام فاضي.. اسمع اللي بقولك عليه.. أنا عندي الحل.. نظرت إليه بكل إعجاب وانبهار فأنا أحب هؤلاء الناس الذين يتكلمون عن تجربة حية.. لا بد وأن لديه وصفة بلدية رائعة اكتشفها فهو لديه عزبة تعداد الناموس فيها يبلغ عشرة أضعاف تعداد مصر فكيف استطاع أن يتعامل معه.. ويكتسب كل هذه الطمأنينة والهدوء.. قل.. قل يا صديقي.. الحقني بالحل.. قال بابتسامة أروع وأحن من الأول.. أولًا ياما مشاكل كبيرة ومصايب سوده نزلت على دماغنا.. وكُنا متخيلين إنها لا يمكن تتحل.. وبعدين اتحلت بمنتهى

البساطة.. والسلاسة.. صح؟ قلت له متعجلًا الحل فأنا أكره المقدمات ككراهيتي للناموس.. صح يا شريف.. قوللي بأه عملت إيه؟ قال.. شوف يا سيدي.. إنت قاعد في بيتك.. أو نايم.. أو بتقرأ جورنال ولا بتتفرج على التليفزيون.. ولقيت الناموس نازل قرص فيك.. تعمل إيه؟

قلت له في لهفة.. أيوه أعمل إيه؟ قال بسلاسة.. ولا تعمل حاجة.. سيبه يقرصك يعني ح يحصل إيه؟ دي ناموسة.. مهما امتصت من دمك حتمصلها إيه يعني؟

ما إنت ممصوص دمك ليل نهار من هنا ومن هنا.. زعلان قوي من القرصة؟! ما إنت عمال تتقرص من كل اللي حواليك.. جاي تعيط من ناموسة؟!. في المساء.. ذهبت لأنام وكنت قد بعت الصاعق بميتين جنيه وجهاز قتل الناموس أعطيته للبواب.. وألقيت بالمبيدات في صفيحة القمامة.. وذهبت إلى السرير ونمت نومًا عميقًا هانئًا.. تاركًا للنامـوس تحديد الكمية التي يريد أن يمتصها من دمي بصفتي واحدًا من أفراد الشعب.

# إنهم يأكلون الجراد.. أليس كذلك؟!

لا تصدقوا أننا فعلنا شيئًا أو قاومنا الجراد بالمبيدات أو الموجات فوق الصوتية.. لا تصدقوا ذلك.. لم يرحل الجراد بحرق إطارات السيارات ولا بالطبل البلدي.. الحقيقة أن الجراد.. جاء ورحل (كده من نفسه) فلم يجد لا أخضر ولا يابس ولا أي حاجة.. وقد حدث أنني التقيت بطريق الصدفة بأحد أسراب الجراد في أول طريق مصر إسكندرية الصحراوي عند الكارته.. وأحاط سرب الجراد بسيارتي فبدا المشهد وكأنني في موكب.. ورغم أنني لا أدعي أنني خبير بالحشرات إلا أنني شعرت أن الجراد المحيط بي يعاني مشكلة نفسية حقيقية.. صدقوني ولا تسخروا مني.. ولا يقل أحدكم.. هذا العبيط يترك مشاكلنا كلها ويفكر في مشاكل الجراد.. حقًّا كان الجراد يبدو وكأنه ضل طريقه أو تاه وكأن لسان حاله يقول.. أنا إيه اللي جابني البلد دي؟

لم يجد الجراد المسكين ما كان يحلم به من غيطان أو أراضٍ زراعية حيث وجد أنها تحولت كلها إلى مناطق سكنية وكتل خرسانية تعلوها (الدشّات)

و (الأرايل). انقض عليها الجراد في البداية بغشومية محاولًا أن يمصمص أي حاجة بلا جدوى.. فوجدها متمصمصة وناشفة.. وجن جنونه بعد أن قطع آلاف الكيلومترات وأتى إلى هنا.. ليجد العملية سداح مداح.. دخل إلى أفران الخبز.. ومطابخ الناس.. وجيوبهم.. ولم يجد أي شيء.. العملية خربانة.. وثار الناس وغضبوا فشعبنا لا يحاسب الحكومة إلا على الظواهر الطبيعية.. زلازل.. سيول.. سحابة سوداء.. جراد.. وهي ظاهرة تاريخية كوميدية فلم يكن شعبنا يثور إلا حينما يجف النيل أو يتفشى الطاعون.. وكان يجب أن يطلع مسئول من وزارة الزراعة ليطمئن الناس.. وقف السيد المسئول أمام الصحفيين في المؤتمر وقال.. يا اخواننا.. الجراد رحل من مصر ولا توجد جرادة واحدة في البلاد.. ليطمئن الناس تمامًا ولا تعطوا آذانكم للإشاعات المغرضة.. وبينما هو يتحدث إذا بسرب من الجراد يحلق فوق المؤتمر.. فنظر المسئول إلى السرب.. وسأل المساعد الواقف بجواره يمليه الخطاب.. ده جراد ده؟!

فأومأ المساعد برأسه.. فسأله المسئول في ضيق.. وسايب الدنيا كلها وجاي هنا فوق المؤتمر!. وعاد المسئول وقال أنا لم أكمل كلامي.. فعلًا رحل الجراد من مصر وأصبحت مصر خالية منه إلا من بعض الفلول الشاردة نتيجة قيام المواطنين بمكافحتها بأساليب تقليدية كإشعال الكاوتش وقرع الطبول.. ثم همس لمساعده.. فيه حاجة واقفة على قفايا.. بص كده.. إيه دي؟ جراده!. ثم صرخ فيمن حوله بحزم قاطع:

محدش يمد إيده.. هيه ح تطير لوحدها.

وقال أحد الخبراء في المؤتمر إن الذي أتى بالجراد هذا العام هو أننا منعنا حرق قش الأرز.. وكان هذا الحريق والدخان المتصاعد منه هو الذي يمنع الجراد من الدخول إلى أراضينا.. قال أحد السائلين ولماذا لم تحرقوه هذا العام.. قال الخبير.. لنمنع السحابة السوداء.. قال أحد الساخرين.. نجونا من حفرة وقعنا في دحديره.. إذًا.. أنت مخير أيها المواطن بين السحابة السوداء أو الجراد الأحمر.. بين حرق القش وتحمل السحابة.. أو ترك القش وتحمل الجراد.. واقترحت إحدى شركات التليفونات أن تعمل مسابقة على رقم تليفون.. عزيزي المواطن.. أيهما تختار السحابة أم الجراد؟!.

وبدأ صراع بين وزارتين.. وزارة الزراعة تريد أن تخلص شغلها على ما يرام وتحرق القش وتطرد الجراد.. بينما ترى وزارة البيئة أن حرق القش سيؤدي إلى السحابة السوداء وسيهدر جهود الوزارة.. وانقسم المواطنون.. بين سحاباوي وجراداوي.. وكان لهذا الانقسام الحاد في مجتمعنا أثره المباشر على البورصة.. والأسعار وحالة الانفلات الأمني.. وأخيرًا اتفقت الحكومة على بيان عام مشترك بعدما قعدوا مع بعض.. أن سماء مصر صافية من السحابة السوداء وخالية تمامًا من الجراد.. وأن الزراعات في مصر بخير ولم تحدث أي خسائر هذا العام بعد الإشارة طبعًا إلى أن الدولة وفرت كل الإمكانيات والأدوات والفرق اللازمة لمكافحة الجراد.

وفعلًا اختفى الجراد.. كيف ذهب.. ومتى؟! وهل عاش طول فترة غزوه لبلادنا صائمًا.. لا أحـــد في مصر ينام بدون عشاء واللقمة الهنية تكفي ميه..

والجراد هل ظل هكذا؟ معقولة؟! لا يوجد في رأيي سوى تفسير واحد.. أننا نحن الذين أكلنا الجراد.

وهذا ما جعل إخواننا في الصين الشقيق يصدرونه لنا في العام التالي ليس طائرًا كما جاء إلينا قبل ذلك.. وإنما مغلفًا وموضوعًا في علبة مكتوب عليها (جمبري صيني نمرة واحد!).

# حكاية نورا

إذا اتفقنا – مبدئيًّا – على أن المجتمع يؤثر بشكل مباشر على شكل ومضمون العمل الفني وأن الحالة الاجتماعية هي أم الحالة المسرحية.. إذا اتفقنا على ذلك ووجدنا مثلًا.. أن الفن الذي يزدهر في فترات الحروب وما بعدها يحمل طابعًا خاصًّا.. فرأينا مسرح العبث واللامعقول.. والفنون السريالية.. وإذا كانت العنصرية قد أنجبت لنا أدبًا وفنًّا جديدًا.. هو أدب السود.. فبالتالي نستطيع أن نخلص إلى أن حالة المجتمع هي الفعل.. بينما يكون الفن بأشكاله المختلفة هو رد الفعل.. وعليه إذا انتهى كلامي بهذه النتيجة لصار الفن أقل بكثير من ناحية القيمة مما نتصور وأنه لا يعدو إلا أن يكون مجرد مرآة تعكس صورة الواقع حتى لو أظهرتها بكل ملامحها بكل تفاصيلها ولكنها لا تقوى على أن تغير أي شيء فيها..

وهنا يبرز السؤال الأكثر جرأة وطموحًا.. هل تستطيع المسرحية أن تغير مجتمعًا؟!. ولن أتسرع في الإجابة على هذا السؤال الصعب وإنما أدعوك عزيزي القارئ أن تحاول معي ربما نصل معًا.. ولنبدأ مشوارنا الطويل

بطريقة مسرحية لنفتح الستار بعد الدقات الثلاث.. ونعطي لأنفسنا لحظة تأمل.. ما هذا الذي أمامنا؟!

إنه أشبه بغرفة أزيل حائطها الرابع لتكشف لنا عما يجري بداخلها.. وهؤلاء الذين يتحركون أمامنا ويتكلمون ويتشاجرون ويعيشون حياة كاملة.. لا يشعرون بنا.. أو يدّعون ذلك.. وهذا الحائط الوهمي الذي نمثله نحن ليس جدارًا من الأسمنت وإنما هو جدار من العيون والأحاسيس والأنفاس المتلاحقة.. وبرغم أن الشخصيات التي في الغرفة تتآمر على بعضها وتتهامس أحيانًا إلا أنهم اتفقوا جميعًا على أن شخصًا واحدًا هو الذي يجب أن يعرف كل شيء.. هو أنت.. المشكلة أنك أنت أيضًا رغم أنك لم تشارك في الحدث إلا بالمراقبة والتلصص والمشاهدة من بعيد.. أنت الوحيد المتورط الذي له الرأي النهائي في كل ما يتم داخل هذه الغرفة..

ويؤكد الكاتب المسرحي النرويجي الشهير أبسن أنه لا يجب أن يفوتنا أن المؤلف يجب أن يشغل أيضًا تلك الفجوة التي يطل منها المتفرج على الممثلين فهو أشبه بحكم في مباراة ملاكمة يبعد الملاكمين أحيانًا حينما يلتحمون ببعضهم البعض.. ويعد من واحد لعشرة إذا سقط أحدهما.. ليظل صراع الأفكار بين النظارة وبين الممثلين.. صراعًا نظيفًا مشروطًا بقوانين اللعبة.. ولذا وضع أبسن حدودًا صارمة فرضها على نفسه في كتابته فهو يلتزم في معظم أعماله وحدة الزمان والمكان والموضوع.. فمسرحياته لا تستغرق في فصولها غالبًا سوى يوم أو يومين.. والمكان لا يتعدى غرفة أو حديقة.. والحوار عنده يبدو طبيعيًا متدفقًا وكأنه اقتطع جزءًا حقيقيًا من الحياة اليومية وقدمه لنا على مسرحه.. ولم ينزلق أبدًا في المسالك الأدبية أو القصصية

والجمل الرنانة الفخمة فترك شخصياته تتحرك وتتعامل مع الحياة بطبيعتها وكأنها هي التي كتبت لنفسها حوارها وحددت مواقفها بنفسها.

والشيء الذي لا ينكر أن رجال العلم والسياسة كانوا مؤثرين في المجتمع وفي الإنسانية كلها بشكل مهول.. بل إن عالمًا فذًّا مثل أديسون باختراعاته التي تزيد عن الألف استطاع أن يغير من شكل الحياة.. ومن سلوكيات البشر.. فخد عندك مثلًا الفونوغراف وآلة التصوير السينمائي ومسجل الموسيقى.. والتلغراف.. وكل وسائل الاتصال التي اخترعها.. ماذا فعلت؟ غيرت المشهد الإنساني كله.. فلم يعد العاشق الولهان يبكي ويتعذب إلى درجة الانتحار إذا فارقته حبيبته.. فهي على أقل تقدير تستطيع أن تكلمه من أي مكان في العالم.. ويظل العاشقان المتيمان ساهرين طول الليل لا ينظر أي منهما إلى القمر كما كان يحدث قديمًا.. وإنما كل منهما يجلس أمام الإنترنت.. ويتبادلان الأشواق والغرام.. بل إن رجلًا مثل هتلر أو نابليون كان وحده قادرًا على أن يحرك الملايين بإشارة منه.. وإذا كان المبرر لهذه القدرة المغناطيسية له في تحريك الجماهير يرجع إلى أنه - هتلر مثلًا - كان لا يمثل.. أعني أنه كان حقيقيًّا ومن ثم أثر في الناس فهذه أيضًا لا نستطيع أن نثبتها.. فهل ينكر خبراء التمثيل والدراما مقدرة الرئيس الراحل أنور السادات التمثيلية الفائقة التي جعلته يحول مجرى النهر ويأخذ الرواية الاجتماعية المصرية بعيدًا إلى آخر ما يتوقعه المشاهد.. هنا نعود للتساؤل الصعب.. ألم تستطع شخصية مسرحية أن تؤثر في المجتمع ويستمر هذا الأثر.. بعد نهاية الرواية.. إلى أن يتحول إلى تغير جذري في بناء المجتمع وأفكاره؟!

يبدو أنني وجدتها يا عزيزي.. إنها نورا.. بطلة مسرحية أبسن الشهيرة (بيت الدمية) والتي جعلت أبسن الكاتب الوحيد الذي بلغ تلك الشهرة الأوروبية التي تحيط اليوم بنجوم السينما لدرجة أن إعلانات السجائر والقهوة والملابس كانت تذكر أنها (على طريقة أبسن) (a la Ibsen) وهذا ما جعل الكاتب الساخر العظيم برناردشو يقول في مقارنة بين أبسن وشكسبير.. لقد وضع شكسبير أنفسنا على المسرح دون مواقفنا.. وجاء أبسن ليسد النقص الذي تركه شكسبير.. وإحدى نتائج ذلك أن مسرحياته تعد أهم كثيرًا بالنسبة لنا من مسرحيات شكسبير وما السبب في كل هذه النجومية.. إنها (نورا) وليس غيرها.. تلك الشخصية العبقرية التي انفلتت من اللجام كمهرة قوية وانطلقت جامحة وانطلق وراءها المجتمع كله.. ولنعرف أولًا.. ما حكاية نورا.. ولماذا تركت كل هذا الأثر الرهيب؟

البداية في النرويج 1879 والتي كانت في هذا الوقت بالقياس إلى إنجلترا وفرنسا تخلو من حياة المدينة في مجتمع زراعي أو مجتمع يعيش على صيد الأسماك مما دفع النساء إلى ذلك الوضع المهين من الاعتماد التام على الرجل الذي يكسب أجره وينفق على البيت في سلطة مطلقة.. بل إنهم كانوا يؤمنون أن قانون الله الشامل قد أعطى للرجل سلطانًا مستبدًّا على أنثاه في هيبة مستحقة.. ونورا هي زوجة تورفالد هيلمر (سي السيد النرويجي) والتي نشعر من أول لحظة أنها مجرد دمية.. أو طفلة صغيرة.. قد يداعبها زوجها أو يربت على شعرها أو يلقي لها بقطعة حلوى ولكن بحدود.. أما فيما يختص بأي أمر جدي فنورا كما يراها زوجها (ليس لها في كلام الكبار).. نجده في

بداية الرواية يناديها (أهذه بلبلتي الصغيرة).. أوه أرنبتي الصغيرة.. وحينما تنفق الكثير من المال يقول لها ضاحكًا.. مسرفتي الصغيرة.. ثم يعطيها درسًا مباشرًا عن أضرار التبذير وتراكم الديون.. ولا يصلح درس مثل هذا إلا لمن هي دون السابعة من عمرها ثم يمسكها من أذنها.. هل أكلتي كثيرًا من الحلوى بدون علمي.. إن هذه ستفسد أسنانك يا عزيزتي.. وهكذا.. تظل نورا تلهو بمرح الأطفال وببراءة غريبة حتى تملك قلبك تمامًا.. إلى أن تزورها صديقتها كريستين التي تعاملها بنفس الطريقة.. مما يضايق نورا.. فتصرخ فيها: (أنت كالآخرين كلكم ترون أنني لا أقوى على مواجهة أي شيء جدي ولكن دعيني أكشف لك سري لتعرفي أنني امرأة قوية استطاعت أن تنقذ زوجها وحياتها وبيتها من أزمة كادت أن تطيح بكل شيء..) ونعلم أن نورا قد استدانت مبلغًا كبيرًا من البنك بضمان أبيها وزورت إمضاء أبيها لكي توفر المال اللازم لرحلة العلاج لزوجها بعد أن أكد لها الأطباء أنه يحتضر ولا علاج له سوى السفر.. كل هذا وهي حريصة على ألا يعلم زوجها حتى لا يشعر بامتهان لكرامته أو بضربة في رجولته وكبريائه واعتداده بنفسه.

ولكن لا بد أن يظهر (كروجستاد) الموظف بالبنك الذي يعرف القصة كاملة.. ويهدد نورا بأن يشي لزوجها بكل شيء ويبتزها إلى أن يعرف الزوج بالقصة في النهاية.. وتبدأ أروع إضافة مسرحية لفن المسرح في الفصل الأخير من الرواية.. وهي (المناقشة الأبسنية) إن هذه المواجهة الساخنة الصارخة.. بين الزوج (تورفالد) وزوجته (نورا) هي مسرحية في حد ذاتها.. ومهما طالت أنت في حالة نشوة واستمتاع لا نظير لهما.

ينهال عليها تورفالد بأقسى الألفاظ.. (أيتها التعسة ماذا فعلت؟! ثمان سنوات وأنا أعقد عليك أملي في الحياة فإذا أنت منافقة.. تافهة.. كاذبة.. بل وأسوأ من هذا.. مجرمة.. يا للعار.. كان يجب أن أتوقع هذا.. إن خسة أبيك وطباعه المتدهورة انتقلت إليك.. (تحاول أن تقاطعه).. اسكتي أنت لا دين لك ولا أخلاق.. ولا إحساس بالواجب.. لقد حطمت سعادتي.. ودمرت مستقبلي.. ستنشر الفضيحة على الملأ ولن أسلم من الاتهام بأنني شريك لك في جريمتك.. أوه ماذا أفعل يا ربي.. يجب أن أحاول ترضيته بأي طريقة.. حتى تبقى المسألة في طي الكتمان.. مهما يكن الثمن).

وفي وسط هذه العاصفة العائلية البشعة.. يطرق الباب ليجد تورفالد في يديه الكمبيالة التي كتبتها نورا وزورت فيها اسم أبيها.. فيقفز تورفالد من الفرحة.. (لقد نجوت.. نجوت.. لقد أعاد الكمبيالة.. نجونا يا نورا!. نجونا.. لقد زال الخطر.. زال الخطر).

ولكن نورا الأرنبة الصغيرة.. الدمية.. تتجهم وتتغير ملامح وجهها لأول مرة.

ويندهش تورفالد ويسألها: ولكن ما هذه النظرة المتجهمة يا نورا.. آه.. أنت لا تصدقين أنني غفرت لك.. ولكن أقسم لك.. لقد غفرت لك كل شيء.

هنا تخلع نورا ثوب الطفلة.. ثوب الدمية.. وتنظر في ساعتها وتقول له بوقار امرأة ناضجة.. اجلس هنا يا تورفالد لا بد لنا من حديث فهذه لحظة تصفية الحساب.. لقد انتقلت من يدي أبي إلى يدك أنت.. ووجدتك تنظم

الكون من زاويتك الخاصة فتبعتك في الطريق المرسوم.. كانت وظيفتي في الدنيا هي أن أسليك وأسعدك وأطيعك في كل شيء.. كان يخيل إلي أنني سعيدة وأنا لم أذق للسعادة طعمًا.. كان بيتنا أشبه بحديقة أطفال.. اعتبرتني عروسًا أو لعبة من الحلوى.. والآن انتهى وقت اللعب وآن الأوان للجد.. أنا كما وصفتني بالفعل لم أعد أصلح لتربية الأطفال.. أنا يا تورفالد.. لم أعد أحبك ولا أريد البقاء معك.. كنت أتصور أنك حينما تعلم بما فعلت ستقول لكروجستاد بكل جرأة أذع القصة على الملأ.. ثم تحمل عني المسئولية وتقول إنك المذنب.. تلك هي المعجزة التي كنت أنتظرها منك.

والآن وضح لي يا تورفالد أنني كنت أعيش طوال تلك الأعوام الثمانية مع رجل غريب وأنني أنجبت له ثلاثة من الأطفال.. رباه.. إن جسدي يقشعر لمجرد التفكير في الأمر.. وتنهض نورا وقد قررت الرحيل وتورفالد ينظر نحوها مصعوقًا.. ويسألها.. هل أستطيع أن أتصل بك؟ أن أكتب لك؟ هل تعطينني فرصة أخرى؟ فترد في سخرية.. إذا حدثت معجزة المعجزات وهي أن تتغير نظرتنا إلى الأشياء تغييرًا كليًّا.. وتخرج نورا من البيت.. وتورفالد يصرخ خلفها.. نورا.. نورا.. ثم يسمع صوت الباب الخارجي وهو يصفق صفقة مدوية عالية.. غاضبة ثائرة كأنها صفعة على وجه تورفالد ووجوهنا جميعًا.. بل هي صفعة على وجه المجتمع النرويجي كله الذي كبل المرأة بأغلال من العبودية والقهر.

وعندما صفقت نورا الباب هذه الصفقة المدوية.. تردد صداها في جميع أنحاء أوروبا.. كان العام 1879.. وثار المجتمع النرويجي كله في وجه أبسن..

هل تصرح يا أبسن للمرأة أن تخرج هكذا من البيت في تحدٍّ سافر للتقاليد؟! هل المرأة هي التي يمكن أن تضع كلمة النهاية بنفسها؟ وهاجم الجمهور المتزمت المسرح وضرب المسرح بالطماطم والزجاجات الفارغة..

وحاول أبسن أن يرضي الثائرين المتعصبين المتشددين في آرائهم لدرجة أنهم هددوه بالقتل فعدل خاتمة المسرحية وجعل نورا بعد أن صفقت الباب خلفها تعود إلى البيت لترعى أولادها.. ولكن (يقال) إنه قبل موته أوصى أن تحذف هذه النهاية الجديدة التي كتبها تحت ضغط.. وأن تترك نورا تعيش حياتها كما اختارت وكما أرادت مستقلة حرة ذات إرادة.. وبدأت الدعوة إلى حرية المرأة وحقها في المشاركه في المجتمع وفي الأسرة تجد صداها وصارت نورا هي النموذج الأول الفريد الذي ألقى بالحجر في الماء الراكد.

ويبدو أن صفقة الباب المدوية وجدت صداها أيضًا عندنا في مصر.. وفعلها قاسم أمين ونادى بحرية المرأة في بداية القرن العشرين.. وفعلها إحسان عبد القدوس وكتب أنا حرة.. نعم يستطيع المسرح أن يغير المجتمع.. ويؤثر في الناس إذا كانت الشخصية التي على خشبة المسرح حقيقية.. صادقة.. من لحم ودم مثل نورا هذا إذا كان مسموحًا لنا بعد ذلك أن نقدم مسرحًا من أساسه.

# بلد العجايب

إذا كنت تحب أن تعيش حياة تقليدية هادئة منضبطة.. وإذا كنت لا تحب أن تتفرج على الحواة والسحرة.. وإذا كنت لا تؤمن بالخرافات والخزعبلات والهلاوس.. فأرجوك.. شوف لك بلد تانيه تعيش فيها.. روح عيش في بلد رزله زي ألمانيا.. أو بلد رخمه زي اليابان.. أو بلد ثقيلة زي إنجلترا.. كل شيء فيها محسوب بدقة والمواعيد بالثانية.. والأحداث هناك يصنعها البشر بأيديهم وعقولهم بطريقة آلية منظمة رتيبة كعقارب الساعة.. إن بلدنا هو بلد العجائب.. وتلك هي روعته.. كان بالدنيا قديماً سبع عجائب.. اندثرت كلها إلا تلك الأهرامات التي لا تزال شامخة عندنا.. حتى كتابة هذا المقال.. تزهو بنفسها على الدنيا كلها.. وكان مصريم بن حام بن نوح عليه السلام هو أول من سكن مصر بعد الطوفان.. ولهذا سميت باسمه.. ومصريم هذا هو أبو القبط.. ولا أعرف الكثير عنه.. إنما معلوماتي غير المؤكدة.. أن مخه كان خفيف شويه.. ولما غرست الأشجار بمصر أيام مصريم.. كانت ثمارها عظيمة جدًّا وإليكم أمثله وردت في كتاب (نوادر الأصول) لتثبت لكم الخير العميم الذي كان في بلدنا.. القتايه كان طولها 14 شبرًا.. متخيلين

معايا حضراتكم.. ست أنفار ماشيين وشايلين أتايه ورايحين جايين بيها.. مما يجعلني أعتقد أنها ماكانتش أتايه بالتأكيد كانت كوسه بس هما ما كانوش عارفين الفرق بين الأته والكوسه.. والذي يؤكد كلامي أن طول طرف القرع وقتها كان يبلغ ثلاثين شبرًا.. شفتوا قرع بالحجم ده؟! وكان طول البلحة الواحدة شبرًا وسباطة الموز كانت تحمل 300 موزة.. زنة كل موزة رطل.. وعنقود العنب إذا قطف كان يحمل على بعير.. من ضخامته.. والرمانة إذا قشرت كان يقعد في تقشيرها ثلاثة أنفار.. يعني مصر كلها كانت تقعد تفرط رمان وما يخلصش.. وبالواحات الداخلة كانت توجد شجرة لارنج.. يقطف منها كل سنة نحو 14 ألف لارنجاية.. غير ما ينثر من الريح وهو أخضر.. هذه هي مصر.. وخير مصر وقد ذكر الجاحظ أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة.. عشر منها في سائر الدنيا والباقي منها في مصر.. ويحكى أنه كان بالصعيد نخلة تحمل كل سنة من الثمر عشرة أرادب تباع منه كل ويبة بدينار.. يعني نخلة واحدة.. دخلها يقترب من دخل قناة السويس في أيامنا هذه.. فجاء أحد الولاة وفرض عليها مكسًا.. ضريبة يعني.. فلم تحمل تمرًا بعد ذلك أبدًا.. وعجائب النخل كثيرة.. في البهنسا مثلًا كان بها نخلة تطرح 121 عرجون بلح فاخر في كل سنة فيتحصل منها 12 إردب بلح.. تكفي القُطر كله.. وقد قال بعض الحكماء في مصر.. مصر نيلها عجب، وأرضها ذهب، ونساؤها لعب، وخيرها جلب، وملكها سلب، ومالها رغب، وفي أهلها صخب، وطاعتهم رهب، وحربهم حرب، وهي لمن غلب.. وقد قال معاوية بن أبي سفيان.. رضي الله عنه.. في وصفه لأهل مصر.. وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث أناس.. وثلث أشبه بالناس.. وثلث لا أناس

ولا أشبه بالناس.. وقال كعب الأحبار رضي الله عنه.. لما خلق الله تعالى الأشياء.. قال العقل.. أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك.. وقال الكبر أنا لاحق بالعراق فقال النفاق وأنا معك.. وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك.

ومن عجائب مصر الكثيرة التي أنقلها لكم الآن أنه كان بأسوان حجر يسمى حجر القيء (الترجيع) إذا أمسك به الإنسان تقيأ كل ما في بطنه وكان بالواحات الداخلة أربعة أبواب من نحاس أصفر إذا دخل منها غريب.. ألقي عليه النوم فينام عند الباب ولا يبرح حتى يأتيه أحد من أهل المدينة وينفخ في وجهه فيقوم.. وإذا لم يفعلوا ذلك.. وتركوه دون نفخ.. يظل نائمًا عند الباب حتى يموت.. وبها موضع معروف باستجابة الدعاء.. هو سطح سجن سيدنا يوسف الذي كان مسجونًا فيه ودعا ربه فيه وخرج منه بعدها ليحكم مصر.. ومصر هي التي ألقى بها سيدنا موسى بعصاه فانفلق البحر له.. وأقام بها عيسى عليه السلام سبع سنوات وبها النخلة التي كانت تنضح الزيت لمريم والبئر الذي اغتسل فيه المسيح.. وقد وصف أحد الحكماء طبائع أهل مصر وأمزجتهم وقال عنهم.. أبدانهم سخيفة سريعة التغيير قليلة الصبر والجلد.. وعندهم الجبن والقنوط والشح وقلة الصبر على الشدائد.. وسرعة الخوف من السلطان والتحاسد فيما بينهم وكثرة الكذب وذم الناس.. وإن الأسود إذا دخلت مصر ذلت وقل أذاها عما كانت في القفار.. وإن كلاب مصر أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان.. في أخلاقهم رقة وعندهم

بشاشة وملق ومكر وخداع ولهم كيد ويتحدثون بالأشياء قبل وقوعها والغالب عليهم اتباع الشهوات والانهماك في اللذات والاشتغال بالترهات والتصديق بالمحالات.

والآن أعود وأذكرك يا أخي.. إذا كنت عاوز تعيش في هدوء.. ومفيش مشاكل.. وقشطة.. والحاجات دي.. شوف لك شوفه تانية.. هذه هي بلدنا.. بلد العجائب التي أصرت أن تظل بلد العجائب واسمع هذه أيضًا.. في بداية القرن العشرين.. كان يعيش في مصر سواق عربية نص نقل اسمه علي محمد المراكبي.. وكان رجلًا وطنيًّا سياسيًّا بالفطرة.. وكان يرفض تمامًا أن يناديه أحد.. يا أوسطى أو باشمهندس.. أو أي لقب سوى بالاسم الذي اختاره لنفسه وفرضه على الجميع.. بطل الثورة المصرية.. فقد ضحى الرجل بكل شيء حتى بعقله.. في سبيل وطنه.. فقد ذهب إلى الزعيم سعد زغلول وركن الأوتومبيل قدام بيت الأمة.. ودخل عليه وراح خالع الجلابية ووقف قدامه بالفانلة والكلسون.. وقال له.. يا سعد باشا.. دي الجلابيه الوحيدة اللي عندي وأنا جاي عشان أتبرع بيها للوفد.. فلما سأله سعد زغلول وماذا تريد؟! قال بزهق.. عاوزين نحكم نفسنا بنفسنا والإنجليز يغوروا من البلد يا باشا.

وتبرع المراكبي بعد ذلك بسيارته للإنجليز.. حينما كانت الحرب العالمية دائرة.. وقد وعد الإنجليز المصريين أن يخرجوا من مصر بعد انتهاء الحرب.. فذهب البطل وأرسل خطابًا للورد كيرلن يقول فيه.. إنه يتبرع بالعربية التي هي أكل عيشه وعلى استعداد أن يتبرع بحياته كمان لكي ينتصر الإنجليز ويخرجوا من مصر بعد كده.. وجاء الرد من اللورد كيرلن يحمل الشكر

والإعجاب.. وانتصر الإنجليز.. ولكنهم ظلوا في مصر بعد انتهاء الحرب.. وكان المراكبي البطل قد تزوج وأنجب ولدين فرج ومحمد.. وماتت زوجته ولها حق.. فكيف تستطيع امرأة على ظهر الكرة الأرضية أن تتحمل هذا الرجل.. وراح بطلنا يعتني بتربية ولديه.. ويبث فيهما روح الثورة.. وعرضت القضية المصرية أيامها على مجلس الأمن.. وعرف المراكبي أن روسيا وبولندا ناصرتا القضية المصرية.. وأن باقي الدول الأجنبية خذلت مصر فأعد خطابين أحدهما لوزير روسيا المفوض في مصر والثاني لوزير بولندا المفوض في مصر.. أعلن فيهما تبرعه بولديه فرج ومحمد.. فرج تبرع به لروسيا ومحمد لبولندا.. وحمل طفليه وذهب إلى السفارتين راجيًا تسلمهما مع الشكر.. ولكن الوزيرين شكراه على عواطفه الطيبة وشعوره الوطني وصرفاه بلطف قائلين إن ليس لديهما الآن من يقوم بتربية الطفلين!.

ذكرت لكم ذلك.. حتى تفهموا في أي بلد تعيشون ومع أي شعب.. نحن بلا فخر بلد العجائب وشعب العجائب.. فهؤلاء الذين يقابلونني هنا أو هناك.. ويشدون شعورهم.. ويكزون على أسنانهم ويلطمون على وجوههم من فرط الغيظ والاندهاش.. أنصحهم بمغادرة البلاد فورًا فهم لا يستحقون أن ينتموا إلى هذا البلد وهذا الشعب.. هؤلاء العاقلون المنطقيون ليس لهم مكان بيننا.. لنهدأ قليلًا.. ولنتوقف عن هذا الاندهاش والانزعاج من تلك العجائب التي نسمعها ونراها كل يوم.. إن هذا بالمقارنة بما شاهده أجدادنا.. لا شيء.. انتوا لسه شفتوا حاجة!. وماذا كان سيكون رد فعلكم إذا رأيتم ست أنفار شايلين أتايه وماشيين.. صدقوني إذا لم تتمالكوا أعصابكم فأنتم

مقدمون على حافة الجنون.. اجعلوا صدوركم أرحب من ذلك.. لقد عشتم سبعة آلاف سنة في بلد العجائب.. ح نيجي ع الآخر ونتهبل ولَّا إيه؟ البلد بتتبني من أول وجديد.. واحنا لسه أولكشي.. بنتعرف على بعض وبنعمل دستور.. سأقول عليه (نعم) بكل جوارحي.. بل إنني سأكتب في الدائرة (نعمين).. وإن كان لي تحفظ بسيط أرجو أن يتداركوه حينما ينعقد البرلمان.. وهو إضافة مادة خاصة بالمتخلفين ذهنيًّا واللي مخهم لاسع شويه.. والتأكيد على حُسن معاملتهم في الخانكة وفي العباسية.. وهذا من قبيل الاحتياط الشخصي لا أكثر ولا أقل.

# لقد وقعنا في الفخ

هل صدق المتنبي حينما وصف مصر في بيته المشهور:

**وكم ذا بمصر من المضحكا ت لكنه ضحـك كالبكـا**

الغريب أنه حينما وصفها بذلك لم يكن صادقًا أيامها بقدر ما كان مغاليًا موتورًا حينما قال هذا البيت.. وربنا يكفينا ويكفيكوا شر لسان الشعرا إذا انقلبوا على أحد.. ولكنه قال هذا البيت أيامها حينما كانت مصر تسبق كل المدن وكل البلاد وكان علم مصر يخفق ويرفرف على حدود بعيدة في الشرق.. ويظل فلسطين وسوريا الجنوبية.. ويخفق أيضًا إلى حدود بعيدة من الغرب.. إلى برقة في ليبيا ويكاد يبلغ أعماق إفريقيا الشمالية.. وكانت أمورها منضبطة والنظام فيها مستقر محكم.. وكان أهلها يحيون حياة رغدة وأمنًا ورقيًّا.. ولم يكن ساخطًا وقتها غير المتنبي وحده.. لأن كافور – الذي كان يحكم مصر – لم يحفل به كما كان يريد أو ينتظر.. وإنما نظر إلى المتنبي على أنه مجرد شاعر.. كل شغلته أن يمدح السلطان في المراسم والأعياد ويتقاضى أجرًا على ذلك.. ولا يساوي شيئًا أكثر من ذلك.. ولقد فر أبو الطيب المتنبي

من مصر بعد السفالة التي انهال بها على كافور الإخشيدي.. حتى إنه وصل إلى السب والقذف.. اسمعه وهو يقول:

**لا تشترِ العبد إلا والعصا معه  إن العـبيد لأنجـاس منـاكـيد**

وهو بيت عنصري يشير إلى أن كافور كان عبدًا أسود خصيًّا.. ورغم اعتراضي على سفالة وعنصرية البيت.. إلا أننا يا أخي - المصريين - لينا حاجات تفقع برضه.. صحيح مصر كلها ما فيهاش غير كافور ده علشان يحكمنا!

وعاد أبو الطيب المتنبي إلى وطنه.. هاربًا من مصر إلى العراق.. فلم يكد يقيم في الكوفة شهرًا حتى رأى الأعداء من القرامطة يغيرون عليها ويهاجمونها.. ويفعلون بأهلها أهوالًا وأحس المتنبي أنه ظلم مصر حينما قال عنها هذا البيت الشهير.. ورأى أنه حين كان يقيم بمصر أنها كانت أعز جانبًا وأقوى من أن يغير عليها العدو داخل حدودها.. ولم تكن شئون مصر وظروفها في ذلك الوقت سيئة بمقدار ما صورها المتنبي.

ولكنني أعتقد أن المتنبي لو عاش في أيامنا هذه.. لكان من حقه أن يزداد بنفسه إعجابًا ولفنه إطراء ولظهر على جميع القنوات وهو يعايرنا بما نحن فيه.. وهو يقول:

أنا قايل الكلام ده من الأول ولا لأ؟ وبالمستندات.. خش ع اليوتيوب من أيام الدولة الإخشيدية ح تلاقيني قايله صوت وصوره.

بل ربما أؤكد أنا.. أن بيته هذا أقل بكثير مما ينبغي أن يقال في مصر الآن التي صارت مضحكة مبكية ما في ذلك شك.

وقد أفتى خبير استراتيجي في وجود محلل أمني ومفكر تنموي وبحضور فقيه دستوري مع ناشط سياسي أن مصر تتعرض لمؤامرة التقسيم.. بينما أفتى أحد قيادات وشيوخ التيار الإسلامي أن المؤامرة التي تتعرض لها مصر.. هي مؤامرة علمانية تهدف إلى إباحة الشذوذ وزواج المثليين وعلي يتجوز فرغلي.. والمؤامرة الكبرى في نظري أن يظل هؤلاء وهؤلاء يتكلمون عن المؤامرة.. بينما يطلع آخرون ليعلنوا أنهم لا يؤمنون بنظرية المؤامرة أساسًا ويسخرون منها باستهانة فتظل الحقيقة متأرجحة هكذا وستنتهي غالبًا بأن (اللي مكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين).. ولكن بصفتي - مواطن استراتيجي - اسمحوا لي أن أدلو بدلوي في تلك المؤامرات التي أفتى بها خبراؤنا.. لما لها من علاقة وثيقة الصلة بحياتي الخاصة التي أعتقد أنها حتى ساعة تاريخه لا زالت حياتي الخاصة.. مسجلًا هنا أنني لن يكون عندي اعتراض أن تقتحم هذه الحياة الخاصة بشروط.. أن من يقتحمها يكون شخصًا منتخبًا.. بالنسبة للتقسيم.. أنا ساكن في بيت يقع في الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية.. تقريبًا في منتصف الطريق.. فماذا لو أعلنت الإسكندرية استقلالها؟! وكذلك فعلت القاهرة؟ أين صرت أسكن أنا الآن؟!. حد يجاوبني!. وطبعًا سيرفعون سعر الكارته لأنها لن تعد مجرد كارته.. ستصبح تأشيرة.. وإذا حدث أنني عزمت بعض أصدقائي الإسكندرانية على العشاء.. فهل سيعد هذا الحفل جريمة تخابر مع دولة أخرى؟!

طبعًا أنا أدرك أن الأمم المتحدة لن تترك الأمر هكذا بالتأكيد ستسمح بنشر قوات طوارئ دولية لحفظ السلام بين القاهرة والإسكندرية على الحدود.. طيب والقوات اللي واقفين قدام بيتي دول مش لازم كل شوية

نبعت لهم صينية شاي.. لقمة ياكلوها.. حد من القوات عاوز يخش الحمام.. ده أنا روحت سكنت في آخر الدنيا علشان أبعد عن وجع الدماغ يا ناس.. نأتي بأه لمسألة العملة.. ستكون العملة في الإسكندرية هي (الجني) طبعًا.. بينما سيظل (الجنيه) هو عملة القاهرة.. فماذا لو أتى لي أحد المنتجين يطلب مني رواية.. بأي عملة منهما سأتقاضى أجري؟

كان أفضل بالنسبة لي لو كنت أعيش في دولة قنا.. أو دولة بني سويف.. فهم في اعتقادي سيعودون لنظام المقايضة.. أعطيك زيت وآخد منك سكر.. أعطيك ملح.. وآخد خبز وهي مسألة مريحة وعادلة ولا مجال فيها للغش واسترحنا من مشكلة العملة وكان أجرنا عن الرواية قد بلغ نص مليون بيضة على الأقل.. طيب قبضنا أجرنا! وصار بيضنا في عبنا.. لمن سأدفع الضرائب!. إذا كانت كل دولة من الدولتين تدعي أنني داخل حدودها.. سندفعها مرتين يا سيدي.. مرة هنا ومرة هنا.. لا نريد أن نسبب أزمة دولية ولن يختلف الأمر عما كان في الماضي.. فكثيرًا ما كانوا يقدرون ضرائبنا تقديرات جزافية.. ويهددوننا بالسجن وكنا ندفع.. نأتي بأه لمشكلة الجنسية.. وهي ليست بالهينة.. فبطاقتي مكتوب فيها إن الجنسية قاهري.. ولذا فأنا أعامل أسوأ معاملة في الثغر السكندري.. كأجنبي أو سائح يجب أن يتم اشتغاله فور وصوله إلى الفيش ماركت.. من أول السايس تحت حتى تأتيني الفاتورة فوق.. وقد فاتحت زوجتي التي تعشق الإسكندرية بجنون.. وتلح دائمًا في أن نأخذ العيال ونذهب إلى هناك وقلت لها إن الحل لكي نذهب إلى الإسكندرية براحتنا وفي أي وقت نشاء أن أحصل على الجنسية السكندرية فقالت مشجعة.. طيب وساكت ليه ما تقدم الورق..

قلت لها.. إنهم في الإسكندرية لا يعطون الجنسية بسهولة.. إلا.. إلا إذا يعني.. تزوجت واحدة إسكندرانية.. و.. ولم أكمل جملتي طبعًا.. فقد تغيرت مشاعر زوجتي تمامًا ليس تجاهي.. وإنما تجاه الإسكندرية نفسها وبدأت تكلمني عن زحامها ونسبة الرطوبة والكورنيش المليء بالزبالة.. وأضافت أن السمك اللي أكلته آخر مرة ما عجبهاش.. وقد دعاني السيد رئيس جمهورية الإسكندرية لتكريمي في عيد استقلال الإسكندرية الثاني.. وقال الرجل وهو على المنصة.. إننا نكرم هذا الرجل لأنه رغم كونه لا يحمل الجنسية السكندرية وبوصفه مواطنًا أجنبيًّا من دولة القاهرة إلا أنه في كتاباته كثيرًا ما دافع عن موقف الإسكندرية السياسي بتجرد وموضوعية.. برغم الضغوط التي يتعرض لها من القائمين على الحكم في دولة القاهرة.

وكانت دولة القاهرة في وقتها مشغولة بحرب شرسة بالصواريخ مع دولة بورسعيد.. وقد اتخذت دولة الإسكندرية موقف الحياد الإيجابي.. وقادت محاولة مخلصة لأن تجلس الدولتان على مائدة المفاوضات.. وقد أشدت بذلك في مقالاتي الأخيرة.

وعبر السنوات.. كانت كل دولة ناشئة من الدول الجديدة التي كان اسمها مصر قديمًا.. تكبر وتتوسع وقد ساعد جو الاستقرار في تلك البلاد الصغيرة على زيادة تعداد السكان فصارت بلادًا ضخمة.. قوية.. بل إن بلدًا صغيرًا كان اسمه سرس الليان بلغ تعداده أربعين مليونًا من البشر.. وقد بدأ حكامه يفكرون جديًّا في تحويله من دولة إلى إمبراطورية.. وأخذ الاستعمار الذي سعى ونفذ بالفعل مؤامرة التقسيم منذ أعوام قليلة.. يضرب كفًّا بكف ويضرب أخماسًا في أسداس.. كانت مشكلته قديمًا.. ذلك البلد الكبير الذي

كان اسمه مصر.. لقد صار عنده الآن عشرات الدول الكبرى التي وقفت على قدميها كالوحوش الخرافية.. وعاد المستعمر يفكر مجددًا في التقسيم من جديد.. وأمسك بالخريطة.. ونظر نحو دولة القاهرة الكبرى.. التي تجاوز تعداد سكانها المائة مليون نسمة.. وبدأ يخط بقلمه تصوره الجديد.. هنا دولة القللي.. وهنا دولة إمبابة.. وهنا دولة العجوزة.. وصرخ الخبراء الاستراتيجيون.. إنها مؤامرة.. مؤامرة لتقسيم القاهرة.. أفيقوا..انتبهوا.. نحن نحذر.. بينما صرخ آخرون.. لا يا أخي.. إنها مؤامرة ضد الدين.. لإباحة المحرمات وزواج المثليين.

وسنظل هكذا نُقسم وننقسم.. ونُقسم وننقسم.. إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي أحلم به.. أن يصبح كل بيت في بلادنا دولة.. دولة مستقلة.. لأنني وقتها بالطبع سأدعو لانتخابات حرة عندي في البيت محتكمًا إلى الصندوق.. وأهم شيء سأفعله قبل الانتخابات هو الحشد.. سأحشد كل ما أستطيع من حشد.. سأحشد الشغالين في البيت اللي أنا بادفع لهم مرتباتهم وسأحشد العيال اللي أنا صارف عليهم دم قلبي.. وفي النهاية (ما حشدش أحسن من حشد).. وسأصبح أنا طبعًا الرئيس المنتخب.

# لماذا ضحك الأوسطى جمعه وهو يدفن حماه؟

قلت لجمعه الخراط وهو أوسطى ميكانيكي يعمل في شركة مياه كبرى.. هل يصح ما سمعته ذلك عنك يا اسطى جمعه؟ هل يعقل أن تنفجر في الضحك وبصوت عال وتقهقه حتى تقع على الأرض أمام الناس في المدافن وهم يدفنون حماك وينزلون بجثمانه إلى القبر!! إذا كنت تبلبع أشياءً فهذا ليس وقته ولا مكانه يا أخي.. للموت جلال وهيبه يا اسطى.. وانت رجل ابن بلد وتعرف الأصول..

تنهد جمعه في أسى.. وبلع ريقه في شعور بالذنب والألم كاد يكسو ملامح وجهه بعد أن انتشرت حكايته بين الناس.. وصاروا يتجنبونه كفأر أجرب وقال لي بصوت يملؤه الحزن:

- أنا لم أحب شخصًا في حياتي كما أحببت عم ابراهيم الله يرحمه.. ولم أحزن على أي شخص في الدنيا كما حزنت عليه.. كان رجلًا طيبًا بحق.. بسيطًا.. زاهدًا في كل شيء.. لم يطلب شيئًا ولم يأخذ شيئًا.. عاش حتى بلغ التسعين من عمره.. مستخدمًا أقل الألفاظ الممكنة.. وكان صامتًا طيلة حياته واعتبر أن الكلام وسيلة لا يجب أن يلجأ إليها إلا في حالات الضرورة

القصوى.. ومع ذلك فقد كان صمته الطويل هذا بليغًا.. ودافئًا.. وكما عاش في صمت.. رحل في صمت.. لم يمرض ولم يَشْكُ ولم يزعجنا أنا وابنته.. وإنما ذهب لينام ليلتها.. وعلى فراشه مات بهدوء وكانت ملامح وجهه هادئة.. رائقة.. راضية تمامًا.. وبعدها تمت كل الإجراءات بسهولة غير عادية.. بأتي المغسل بعد دقائق معدودة وكأنه كان على موعد معه.. ولم نبحث عن الكفن.. وجدناه في دولابه مطبقًا بعناية.. ومكويًّا وجاهزًا.. وحتى بجواره وجدنا ليفة وصابونة وزجاجة كولونيا.. لم ينس عم ابراهيم أي شيء.. كل شيء كان متوفرًا وحالة من الصمت والهدوء كانت تخيم علينا جميعًا لقد حافظ المرحوم على هدوئه حتى بعد رحيله.. «كان راجل طيب» الكل لا يقول سوى هذه الجملة ولا أحد يردد غيرها.. وجاءت الخشبة.. لا نعرف كيف أتت ومن الذي أحضرها.. واللحاف أيضًا وجدناه أمامنا.. جديد ورائحته عطرة.. ألم أقل لك تساهيل ربنا..

كان راجل طيب عشت مع ابنته في بيته أربعين عامًا لم أشعر يومًا أنني ضيف على هذا الرجل.. بل كان حمايا هو الذي يشعرني دائمًا بأنه مقيم عندي بشكل مؤقت.. وكان يتحرك في بيته على استحياء.. وحينما كان يحدث خلاف بيني وبين زوجتي لم يكن يتدخل أو يحاول أن ينتصر لابنته كأي أب.. وإنما كان فقط يربت عليها بيده في حنان بالغ فتهدأ وتعتذر لي في الحال، وكأنه كان يملك لمسة سحرية يعيد بها الهدوء إلى البيت.. الله يرحمك يا عم ابراهيم..

وبعد أن غسلناه وضعناه في الخشبة وحملناه وذهبنا به إلى الجامع الأزهر لنصلي عليه صلاة الجنازة قبل أن نذهب به إلى المدافن.. كان الجامع الأزهر

مملوءًا عن آخره بآلاف المصلين الذين أتوا ليصلوا الظهر.. وكان أمامهم ثلاثة توابيت أخرى لمتوفين جاء بهم ذووهم لكي يصلوا عليهم.. ألم أقل لك.. كان راجل طيب.. كل هؤلاء سيدعون له بالرحمة والمغفرة وأعطيت اسمه للإمام الذي سيصلي بنا عليه.. ووضعت الخشبة بجوار الثلاث خشبات الأخرى اللهم ارحم موتانا جميعًا يا أرحم الراحمين.. ولم أجد لي مكانًا في الصفوف الأولى من شدة الزحام فعدت إلى الصفوف الأخيرة.. وصلينا الظهر.. ثم صلاة الجنازة على عم ابراهيم وغيره.. وكان الجامع يهتز من صوت المصلين الهادر.. وانتهت الصلاة وحاولت أن أنفلت بصعوبة شديدة بين الزحام الشديد مخترقًا الصفوف لكي أصل إلى القبلة بجوار المنبر حيث وضعنا الخشبة التي بها عم ابراهيم.. وبعد معاناة شديدة.. وجهد جهيد وصلت.. ولكن لم أجد الخشبة!! أين ذهبت؟! ومن الذي حمل الخشبة.. وكيف أنا الذي أتيت به إلى هنا.. وأخذت أهرول بين الجموع الغفيرة باحثًا عن الخشبة.. فأنا الذي يجب أن أذهب به إلى المدافن.. وأدعو له على قبره.. يا ناس.. أرجوكم.. افسحوا الطريق.. سكة لوسمحت.. أنا مش لا قي الخشبة.. وسألت أحدهم:

- إذا سمحت يا أخ والله.. هما ودوهم فين؟!

فنظر نحوي باستغراب وهو يكمل الدعاء في سره.. وقال:

- ودوا مين؟

فأجبته بضيق وحيرة:

- حمايا.. المتوفي.. أنا جيبته بإيدي في الخشبة وحطيته هنا وصلينا عليه وبعد ما صلينا عليه جيت ما لقيتوش..

قال الرجل وهو يشير نحو أحد الأبواب:

- الحشب كله اتشال وخرجوا بيه من الباب ده.

وجريت نحو الباب محاولًا بصعوبة أن أخرج لألحق بالخشبة.. ولكن كيف يأخذونه ويحملونه ويخرجون به دون أن أكون أنا معهم!! أنا الوحيد الذي أنتمي إليه بصلة قرابة.. هو لا يعرف أحدًا هنا.. ولا أحد يعرفه.. إلى أين هم ذاهبون به!! ومن هم الذين ذهبوا به؟!

وأخيرًا خرجت من الباب.. وتلفتُّ حولي.. لم أجد سوى خشبة واحدة يحملونها على الأكتاف والأزرع.. ولكنها ليست خشبة عم ابراهيم..

كان أحدهم واقفًا بجلبابه الأبيض ولحيته البيضاء الطويلة ينظم المسيرة.. ويوقف سيارة تكريم الموتى.. ويساعدني في إنزال الخشبة ووضعها بحرص وعناية في السيارة.. وكان الشباب يسمعون تعليماته وينفذونها بطاعة وحب بالغين.. فاقتربت منه وسألته:

- أنا جيبت حمايا هنا وصلينا عليه صلاة الجنازة.. ومش لاقيه يا عم الحاج!!

قال الرجل وهو يلم لحيته البيضاء بيديه الناصعتين وبابتسامة ملائكية رائعة لي:

- حماك ده راجل طيب وصالح وربنا بيحبه وان شاء الله ح يسكنه فسيح جناته.

وعدت لأسأله:

- أيوه بس هوه فين دلوقت يا حاج!!

قال الرجل:

- ما تقلقش عليه خالص.. الإخوان أخدوه في المسيرة بتاعتهم وضموه إلى شهدائهم وح يتكفلوا بكل حاجة ان شاء الله..

قلت له مندهشًا:

- بس حمايا ما كانش من الإخوان يا عم الحاج.. وماماتش شهيد..

قال الرجل مستنكرًا:

- وهل تستكثر عليه أن يخرج في جنازة مهيبة ورجال الدين والدعاة الأطهار يمشون وراءه في مسيرته ويدعون له بالمغفرة.. يا أخي افرح له..

قلت له وقد نفد صبري:

- يا عم الحاج.. أنا عاوز حمايا.. أنا داخل الجامع بالخشبة ما ينفعش أطلع من غيرها أنا معايا تصريح الدفن وشهادة الوفاه.. وبعدين ده راجل عنده تسعين سنة ازاي يبأه استشهد قدام قصر الاتحادية ولا قدام مقرات الحزب.. هوه كان قادر يمشي أبوس إيدك يا عم الحاج قول لي.. هما خدوه وراحوا فين دلوقت!!

قال الرجل في ضيق.. المسيرة ح تنتهي عند مستشفى الحسين.. ابأه روح خده من هناك سبحان الله يا أخي.. خيرًا تعمل شرًّا تلقى..

وانطلقت جاريًا نحو مستشفى الحسين وأنا أرى الكاميرات في كل مكان وهي تصور جنازة شهداء الإخوان وسمعت أحدهم يتكلم مع أحد المراسلين ويذكر أسماء الشهداء في الأحداث الأخيرة.. ووجدته يذكر اسم

حمايا إبراهيم أبو العطا.. وكدت أجن والله.. بأه أنا آجي بحمايا عشان أصلي عليه في الجامع.. يتسلت مني في ثانية كده!! يعني اتقلّب وانا قاعد في بيت ربنا!! أنا كبيري كنت أطلع من صلاة الجمعة مالاقيش لامؤاخذة الجزمة.. إنما أطلع مالاقيش حمايا ولا الخشبة..

أخيرًا وصلت إلى مستشفى الحسين.. كانت المسيرة قد وصلت إلى هناك ولم أجد الخشبة التي بها حمايا وأخذت أسأل هنا وهناك.. إلى أن علمت أنهم يدفنونه الآن في مدافن الإخوان..

- وهي فين المدافن دي يا اخواننا !!!

وعدوت بأقصى سرعة لألحق الدفنة.. وأخيرًا وصلت إلى المدافن.. وهم ينزلون به إلى القبر.. والدعاء والأذكار تتلى في المكان.

وكان المدفن حاشدًا بالناس والصحفيين والكاميرات في أعجب وأغرب نهاية لعم ابراهيم أبو العطا حمايا الذي عاش عمره كله صامتًا.. متواريًا هادئًا ومات على فرشته دون أن يحدث أي ضجة أو أقل صوت.. وإذا بجنازته ودفنته تتحول إلى زفة كبرى إعلامية وشعبية وإخوانية.. و .. ورغم جلال الموقف.. وزعلي الذي لا شك فيه على حمايا الغالي إلا أنني.. لم أتمالك نفسي وانفجرت في الضحك.. أخذت أضحك وأضحك بهستيريا وبلا توقف حتى استلقيت على قفايا.. وأخذ المحيطون بي ينظرون نحوي بضيق واحتقار.. وكلما نظروا نحوي هكذا.. أو زجروني.. كان ضحكي يزداد وكأني شارب ربع وقية حشيش..

هذا ما حدث يا أخي.. يوم وفاة حمايا والكل قال بعدها إنني رجل سافل وفي منتهى السفالة.. لأنني ضحكت في هذه اللحظة المهيبة ذات الجلال والرهبة.. وإنني قد أسأت إلى حرمة الموت..

ولكن يا عزيزي بالله عليك ضع نفسك مكاني.. هل كنت حينئذ ستستطيع أن تمسك نفسك عن الضحك.. إن هذه المواقف لا تتكرر كثيرًا.. فيجب أن تعذرني.. أن تسرق الخشبة التي بها حماك من الجامع.. ثم يحملوها ويمضوا بها في جنازة إخوانية تصورها الكاميرات.. ثم بعد هذا يذكر اسم حماك في التليفزيونات بصفته إخوانيًا.. وشهيدًا و.. لا .. لا .. لا أستطيع أن أكمل.. كلما تذكرت ذلك.. ها ها.. لا .. لا أستطيع أن هيء هيء.. أن.. هاها.. أتمالك نفسي من الـ .. هاها .. هيء هيء والله أنا مش مبلبع حاجة.. بس هاها.. حط نفسك .. هيء هيء.. مكاني .. هاها .. هاها.

# المحتويات


| | الصفحة |
|---|---|
| مقدمة الناشر ..... | 5 |
| اصطباحة ..... | 9 |
| منتهى السفالة ..... | 11 |
| أهمية أن تكون سافلًا ..... | 17 |
| انطباعات فنية وكروية وسياسية في المسألة الزوجية ..... | 23 |
| فولتير ..... | 31 |
| لا أنام ..... | 38 |
| أبو حنفي ..... | 45 |
| حلاق الشعب ..... | 56 |
| في الطابور ..... | 64 |
| مصريتي.. مدينة صينية على أرض عربية ..... | 69 |

مزبلة التاريخ ..... 78
لا تصدقوا العلماء ..... 84
قول ما تخافشي.. البورص ح يمشي ح يمشي ..... 90
ناموس.. ناموس.. وتحيا مصر ..... 96
إنهم يأكلون الجراد.. أليس كذلك؟! ..... 100
حكاية نورا ..... 104
بلد العجايب ..... 112
لقد وقعنا في الفخ ..... 118
لماذا ضحك الأوسطى جمعة وهو يدفن حماه؟ ..... 124

# صدر للمؤلف

1 – حسن ومرقص.

2 – طباخ الريس.

3 – فرقة ناجي عطا الله.

4 – أنا لا أكتب ولكني أتأمل.

5 – بانجو.

6 – بنت الإيه.

7 – ح نعيش كده.. ونموت كده.

8 – صايع بالوراثة.

9 – عسل البنات.

10 – عفاريت.

11 – الفن وأهله.

12 – كراسي.

13 - كلام أبيح جدًّا.

14 - كوابيس مضحكة.

15 - وضاع العمر يا وطني.